محمد قطب

من يقتل الحب ؟

قصص قصيرة

الكتاب: من يقتل الحب؟ (قصص قصيرة)

الكاتب : محمد قطب

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com **E-mail: news@apatop.com**

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

قطب ، محمد

من يقتل الحب ؟

/ محمد قطب – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

الترقيم الدولي: ٦ – ٥٩٢ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨

.. ص،.. سم.

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢١٧٤٩

من يقتل الحب؟





من يقتل الحب؟

اصطفق الموج فتحرك القلب ونبض، لوت الأشجار أعناقها وخفقت الأوراق، فسكبت العين دمعها. وظل نني عيني يدور خلف الجفون. أحدق في سطح النيل الهامد، وداخلي يتموج في عينيها ويجمــد عنــد الحافــة، مسحت دمعها وتمتمت.

– لم أتوقع أن ننتهي بسرعة.

وطاف الحلم يداعب الخيال وينفضه. خدرتنا الرعشة.

كان زمنا عجز فيه طائر النورس عن اختراق موجنا، كنا نظنه عاتيا وهادرا. أراحت رأسها بين كفيها وأسهمت. كانــت عيناهــا شــرطتين رقيصتين لانتصاف القمر.

– فيم تفكر؟

أعتصر الحنان يقطر من صوتها الحزين. وكف قلبي عــن النــبض. شعرت بصوتها رغم رنة الخفوت كشفرة حادة تقف على رقبتي. ســحبت بصري المسكوب الهامد، والمشدود بهمود النيل فالتقيت بصفحة وجههــا. كانت الدمعة تنساب رقيقة ثم تتكور كحبة بللور صافية وتســتقر علــى شفتها العليا. وغاص قلبي وزلزلت.

مددت يدي ومسحت الدمعة. واختلجت الشفتان واحمرتا.

سبقتها اللهفة فقبضت على يدي. أراحتها على خدها وقبلتها.

أبقيت يدي وترنح القلب في داخلي. رمقت من بعيد عيونا تزاحمنا فانسلت يدي، وعاتبتني عيناها. هربت من سطوة النظرة. وأشعلت سيجارة.

– كنت أود أن أسعدك.

ولو غسلني ماء النيل ما بين الجيزة والمنيل، فسيظل لقطرات صوتها الفائض في قلبي نقطة باهرة، راعشة، تستعصي على كل موج. هذا الصوت الريان الدافئ الحزين سحب من العمق سخونة الدم، وتجمد عند نقطة صدئة تترجرج في داخلي.

– يبدو أنني كنت أحلم.

– من منا لم يحلم؟

وجدتك والحزن غويط يملأ القلب ويفيض. ففي أيامنا هذه تندفع إلى الحب، فلا خيار بين الحزن والحب. نبضان يلتقيان:

ففي الحزن حب، وفي الحب أحزان.

قربت السيجارة من ورقة كانت أمامنا، فاحمرت، وتفحمت وتصاعد الدخان، رمقتني ثم حدقت في الدخان يتلوى وابتسمت في غل. تكبرين حين نبتعد، وتصغرين حين نلتقي، وفي الغياب والحضور يمرح الألم.

كنا حين نسير ننظر إلى أقدامنا، وكنت تخجلين، ننكفيء وتضحكين وتسحبين يدي وتمرحين. ويرتفع الأنف عاليا يشم ريح النيل.. يطيِّر الهواء شعرك.. وتظهرين من وراء خيمتك وجها قمريا.. وحبة كريز ترتعش، وأنا

أنظر في أعماق عينيك وأرتجف.. وألاحقك.. وأتوه في موجك المستكن. وآخذك من يدك، أطوحك في الهواء وأسقطك.. و.. وتحدقين في الهيلتون وتسهمين. وتغرقين في الضحك.. وتضغطين بكوعك موضع الألم.

– تخيل.. ليلة واحدة!

ولأنك كنت حين تمشين، ترقصين.. توقف الزمان وابتدا.

والناس يرموننا باللهب.. وأنا بك أتقي البشر وأحارب العالم.

فأمواج النيل ما عادت تحتاج إلى سدود.. ونحن يا حبيبتي..

من يرتعش منا في الهواء.. يسقط في الفراغ.. وندور في الشوارع، وتحلمين بعش وأفراخ وإناء وشراب وطحين.. وتعكسين في عينيك ألق الأضواء، ترسمين لي في مخيلتك صورة الفارس القديم.

ورمسيس لا يزال مصلوبا في ميدان رمسيس، وتطوين السلالم على قدميك، وتصعدين، تتكسرين.. وأنا ألهث خلفك، أطمس العيون بالتراب.. خوفا عليك.. وتحت قدميه وقفنا كما ولديه.. والرذاذ يصنع الفراغ، والشمس مصلوبة.

وأنت تتحسسين قدميه، وترمقين جسمه، وهالك الجسد.

دحرجت بصرك بيننا وابتسمت، وكدت أنزوي.

– كنت أود أن أحارب بك العالم.

وكفكفت دموعها:

– جئت بي لتصمت

– الناس ينظرون

– لا يهمني الناس

– يهمني أنا

– ما عدت تطيقني

وحبك عطاء.. وعطاؤك صدق.. لو رأيت فيك ابتـــذالا لقتلتـــك، ولكن حزني كبير. من أين يأتي الحزن؟ ليس له اتجاه.. فكل الطرق توصل إليه. النيل، والشجر، والشارع، والناس.. مرح الحـــزن في كـــل مكـــان واستقر في قلوبنا..

ويتردد النفس ثقيلا وبطيئا وضاغطا..

– مالك

– ....

– لا تتعجل الأمر وابق معي لحظة..

ورأيته يحتويني من كل جانب.. ترشح المسام بـــه. فـــأختلج وأتـــألم وأقاوم.. والحزن.. ما باله غيمة سوداء مترعة بالقطر.. وأمد يدي فـــاغر الفم والفؤاد.. يشدني إليك قلبك، وحبك.

ورشح الحنان في عينيك. ويبعدني هذا الذي لا يزال معقودا في غيمته ولا أعلم، متى ينهل وينتهي.

المسافرة

وصلت المحطة متأخرا، بحثت عن عربة تقلني إلى البلد فعجزت.. كان «الموقف» صامتا، وانسحبت عليه دعة طارئة لم يتعودها ومرح فيه كسل لم يألفه. تراصت عربات البيجو القليلة، وفتح سائقوها أغطيتها وانتظروا، كان بي خوف منها، فلم أسأل. ولم يبق أمامي إلا السفر عن طريق طنطا؛ فعربات «الخط» متوافرة. تخيرت واحدة جديدة وصعدت. جاء جلوسي بجانبها، فردت الصحيفة وطالعت العناوين ثم طويتها. خطفت بعيني المرئيات والشوارع حتى وصلنا إلى الطريق الزراعي.

الطريق طويل تحفه الخضرة من الجانبين فساعدني على الشرود، والمقعد طري ولين ونظيف فغصت فيه. ناولت المحصل جنيها كاملا ثمن التذكرة. وحين امتدت يدها لتعطيه الجنيه بان لي وجهها ملائكيا جميلا. العين الخضراء، والأنف المدبب والذقن المسحوب إلى العنق في استقامة. اهتزت خيوط «الشال» وتطايرت، فحجبت عني شعرها، ولكنني رجحت صفرته. اعتدلت، وأسندت رأسها وحدَّقت. كادت عيناها تلامسان الزجاج.. ضايقها الهواء فانسحبت إلى الداخل، لامستني فأعدت قراءة الصحيفة. كان فستانها واسعا هفهافا، فهب الهواء فيه وانتفخ، أحكمته، وشدته؛ فبدت ساقاها مشدوتين ومرسومتين. ولكن الهواء عاود التسلل. تلفت بركن عيني، فطفت على وجهها حمرة خفيفة، وانطبق الجفن في ارتعاشة، ثم وضعت ساقا على ساق.

كان لون العين يثيرني، بي ضعف معروف تجاه العين الخضراء. لا أراها حتى أتملاها، أقف على خبايا اللون وتركيبه، أخضر صافي كخضرة البرسيم. أخضر مشرب باللون البني، أو أخضر رمادي اللون، أو يميل إلى الزرقة.. انحرفت يمينا ثم شمالا. ثم اعتدلت وغصت في المقعد، وهي لا تزال رافعة الرأس تنظر برتابة إلى الأمام، وخيوط «الشال» يداعبها الهواء.

واهتزت العربة فجأة وبعنف حتى اصطدمنا بالمقاعد الأمامية.. كانت الفرملة زاعقة، وانهال السائق سبا. وهي.. استقام جذعها ومدت عنقها ونفرت منها العين قلقة مضطربة.. لحظتها اصطدته، هذا اللون الأخضر البرسيمي، ساح وانتشر حتى كاد يأكل عينيها ويجور على البياض، لم تفتني حركة يدها حين وضعتها على قلبها.. ولا الحركة العصبية وهي تسند جذعها بتوتر. ملت إليها هامسا:

– حدث شيء؟!

أدارت رأسها بخفة ثم عادت إلى وضعها مشرئبة العنق تحدق في الطريق، وتمتمت بكلمة متقطعة.

– مجانين.

حاولت أن أواصل الحديث، فأدارت وجهها إلى النافذة، اجتاحني اللون الأخضر. إحساس بالفيض ينثال عليَّ، تعتريني رعشة الرائحة، فتتخدر حواسي بملمس اللون. وزهرات البرسيم البيضاء. غمست عيني عبر النافذة، فلاحت لي غيطان الذرة خضراء متوجة بالكيزان. وقعت ذاكرتي تحت سطوة اللون، وسيطرت على قوة قاهرة أن أراه. أن أتملى هذا

»النني» الأخضر وأن تشرب عيني منه وترتوي. حاولت أن أدير وجهي إليها.. ولكن السائق خفف من سرعته، ونهض الراكبون من أماكنهم، وصوبوا عيونهم المندهشة إلى حافة الطريق.. لمحتها تنهض وتميل برأسها، أحنت صدرها فلامست خيوط الشال أذني وارتجفت.

علتني الدهشة فقمت. كان اللوري غائصا في الماء، والآخر مقلوبا على ظهره.. وعربات الإسعاف تزمجر، وحين ابتعدنا أدارت ظهرها. ولاح على وجهها حزن مستفز، تمتمت وكأنما تحادث نفسها.

– مجانين.

ملت إليها ويدي تفرك الصحيفة.

– هذا الطريق مخيف.

– لا تمر ساعة إلا وتقع حادثة.

أدرت وجهي بحذر. وأنا أميل إلى الأمام.. علني ألمحه. هذا العصي الجائر على العين.

– تسافرين كثيرا؟

لم تتلفت، ولم تتحرك وظل وجهها المدور المشرب بالحمرة تخفيه عني ذوائب الشال المتطايرة..

– ليس كثيرا

– من القاهرة.

- لا.. ولكني أعيش فيها.

- طالبة.

- نعم.

وحدقت في النافذة، فران الصمت. وعاود الهواء تغلغله. فانتفخ الفستان، قامت وشدته تحتها، فبانت تقاسيم جسمها واضحة، الصدر النافر، البطن الضامر، الساقان المزمومتان.. استرعى انتباهها نظرتي.. رفعت بشالها على جسمها.

- الفستان الواسع مريح.

ابتسمت خفية، وأزاحت خيوط الشال، ولمست وجهها، وضغطت على أنفها، وضحكت عيناها، وساح اللون الأخضر، قصدته وتصلبت عيناي عليه، أطبقت جفنها، واهتزت الرموش.

- طنطا؟

علتها عبسة خفيفة غضنت جبهتها.

- لا.. ولكني سأستقل عربة أخرى.

- إلى أين؟

فتحت عينيها دهشة، فأدركت كم يكون عادلا أن يجور الأخضر على العين بتمامها..

- طريق شبين الكوم.

– هو طريقي.

لملمت نفسها، وصوبت بصرها إليَّ في قوة ونفاذ.

– ألا تخشين السفر بمفردك؟

قالت، ولا تزال تحدق في قوة.

– كيف وأنا أعيش بمفردي.

– ولا تخافين من نفسك.

وضحكت، فزغرد اللون الأخضر في داخلي، وانثال شعوري فيضا عطري اللون.

– أخاف من نفسي!!

وعلت بسمتها، فرف على الوجه ضوء وردي.

– من لها جمالك تشعر بالخوف.

– ولهذا أطمئن..

واحتويتها في داخلي.. وقطعت عن ذهني خيط الذاكرة.

– لأنك جميلة تطمئنين!!

– نعم.. لأني أعرف كيف أحافظ عليه.

ووصلنا إلى المحطة.. وكانت مزدحمة، أخرجت حقيبتها واستعدت للنزول، طلبت منها أن أحمل الحقيبة أثناء الزحام والتدافع، فرفضت. فضلت أن تشق طريقها وسط الحشد بحقيبتها، لكنها حين رفضت كانت

عيناها تضحكان، وكان اللون الأخضر منتشرا، ومنسابا كحقل برسيم هبطت عليه نسمة رخية.. تابعتها بنظري. معتدلة القوام، محبوكة الخطو، وخيوط شالها تتمايل على جذعها.. والتوى قلبي.

إيقاع الكلمات الصدئة

مدخل:

ها هي عوالمي التي تصورت أنني أسبح فيها محتويا ضوءها الباهر، مستلهما منها براءات وجود لم يتشكل، تتسرب من أمامي شيئا فشيئا، فالثلج ربيعه الشتاء، وشتاء الأيام قارس.. وعمري الممتد شتوي الألم.. في زماننا يصعب علينا أن نسلخ الأشياء بحدودها.. ولادات العصر عسرة. عالمي الوردي غطاه غلاف أبيض. وحتما للوردة أن تورق: تمتد الأيدي لتجهض البراءة.

دائما أدس عيني في الأشياء. وحين تلاعبت عيني بعالمي اكتشفت أن تحت الغلاف قاعا ساحت معالمه. تداخلت ألوانه، دارت فاسودت. تقاطرت حوله الجهامة، ومن العين الكليلة رشح الملل.

.....

ضحكت الطفولة تغطي وجهها الحزين، رياح الخريف تهب، تنعش النفس، موج البحر يتدافع، يلمس الشاطئ، تذوب الرمال، ذوبان حسي المرهف، حين وضعت يدي في يدها سرى فيَّ دفء الأيام الخصبة.

– تأخرت!

كان كل ما فيها حلوا.

- دائما تتأخرين.

- رغما عني.

الأشجار تتمايل في رقصة غابة بكر. سقطت على رأسها ورقة خريفية. سحبتها ووضعتها أمامنا. هالني أن تتأوه لمرآها.

- أخاف من الأصفر.

- تحسست كفها. (كفها كان رقيقا.. كيد طفل وليد).

- لم؟

- باهت كالنهاية.

أمارس الأشياء في بدايتها برغبة ملحة على النهاية تواجدي عصارة راشحة في الشيء. أتمدد فوق الأشياء لأسحبها من أذنها غصبا. البدايات أكثر رقة. تظل الأشياء تتحاور، وعند خط النهاية تكف عن المحاورة، العجز وجود. العجز يتسرب إلى الأشياء، وقبل أن أصل إلى نقطة الوسط أكون قد سقطت ويتزاحم ثقل الأشياء فوق صدري، كأنهما حمل السنين الأولى يوضع على الكتف. والعجز وجود. يتقوس الظهر، تعوج الساق، لأن - في الأصل - الأشياء زاحمت مجرى القلب.

- إنه الخريف.

قالت ورجفة القلب تجري بالعين إلى عالم مخبوء بين جنبات ضوء منسكب من شعاع شمس قتلها الغيم.

- قل زمن الأشياء.

تعلقت الدهشة فوق رأسي، تغضنت جبهتي حين سحبها الانفعال. تكور الانفعال علامة استفهام. أذنها علامة استفهام. الجمجمة التي لا تفرقها عن جمجمة طفلة، سرى فيها تيار حزن جديد. ولادة فكرية مغلفة بالشعور. زمن الأشياء!! من أين عرفت؟! وقشور الحياة مجرى اهتمامها.

- تعبير رائع.

- أعجبك!

- كيف أتيت به؟

- أحسنته.

ولذت بالصمت. حين تكبر الأشياء فجأة أمامي ألجأ إلى الصمت.

- ألست شيئا؟!

- أنت كيان ممتليء.

وهدير الموج يطغى على همساتنا، ورذاذ الماء يبلل المكان، فيرطب الفم ويرعش الحس. عيوننا مصلوبة على أسفلت الشارع، الليل في القاهرة نافورة ضوء. تتراقص الأضواء في عينيها، أحس انسكاب اللون من العين، أنت ليلي وضوئي، الخط على العينين رفرفة تسيح في العين، فتخضل العين بنور البهاء، أميل بهما فتتمايل، تهتز الأشياء، ترقص الأضواء، يتلاعب الضوء بالحس، ينسجم في الأحشاء القلب، يعلو النبض على مسرى الحركة. الشارع قلبان. والصمت عنفوان الحس وحين يمتد صمتنا تدع يدها على القلب، فتطمئنه ضحكتها الخافتة. وتر عود يرتعض.

– أنا الآن مطمئنة.

وتضحك عين في صمت النبض.

– قلبك معي حتى في صمتك.

بائع الترمس – في الشارع المغسول بالأضواء، الأخرس في دوامـــة ضجيج لا ينتهي– يقطع علينا تناغم اللحظة. فراطيس الـــورق منتصـــبة كرماح صحراوية، عكست عين الشمس، وهج العين يدعونا. ملنا إليه.

– بقرش.

– بس!

نظر إليها بائع الترمس كأنما يلتمس منها المزيد، وعينه تختلجـــان في خبث، وضعت يدها في جيبي وأخرجت قرشين.

تناول القرطاس، دببه بشكل لا يحتوي إلا على حبات قليلة. مع أنه حاول أن يدعك حبات الترمس كما لو كان يدهنها لتروق في العين. ناولها القرطاس.

– أنت طيبة.

وضحكت في جذل طفولي. حين تضحكين يتراقص العالم حولك. يســـري النبض في الأشياء فتهتز، وحين يغلبك الضحك أمام الآخـــرين تســـحبينه سحبا. تضنين بضحكك ثم تدعكين الضحك في شفتي.

وحين رآك بائع الترمس تدحرجت حبات ترمسه.وغض من بصره.

– اضحكي يا هانم.

وانكمشت، وتمتمت شفتاك دهشة.

- تضحك!!

وحين كنا نلفظ قشور الترمس، كانت صورة الموقف لا تزال عالقة بذهننا.

- عشقتك في صحوي ومنامي.

ابتسمت في عذوبة فاهتزت الأشجار، وتماست الأوراق في حفيـــف منغم.

«فيك يضيع إحساسي بالضياع، معك أحس بشراع الدنيا يخفـــق، بدفة قلبينا تسير في هوادة».

- أنت لا تفارقني.

وتقلصت أصابعها. الأسنان تجرش الشفة. وموجة خفية لطمت وجه الشاطئ.

«الزمن يداعبها أيضا».

وأمسكت بالورقة، وكان شرود العالم كله تجمع في نظرتها.

- مالك؟!

نصف ابتسامة على وجهها، رمت برأسها، لمحت عاشقين يتعاتبـــان، أزعجها دموع المرأة الأخرى، غمست عينيها في موج البحر.. وتمتمت.

- ليس هناك من يستريح في هذا الزمان.

وفي العطاء حب، انحط عقلي في قلبي، حاولت أن أوضح لها بعض الأمور. فإن نحس أننا نشف في التواصل ليس أمرا عاديا، إنه شيء محبب يلجأ إليه.

- أعرف أنني أسبب لك ألما.

- لست تجربني على كل حال.

العروق تفور قبل الطوفان. والبركان حصيلة دمدمات جوفية. وتجمع القطيع ضد الطبيعة أمر غريزي.

النهار مخنوق، والغيوم لون عنق الضوء، والصمت ملاذنا حين نعجز عن الكلام. الشوارع الفسيحة عنق زجاجة. أماكن الهمس، أماكن الذكرى، نقطة بيضاء في مرمى العين بعيدة الأضواء..وتدحرج الشارع تحت قدمينا، والعيون مصلوبة على موج النهر، نسكب فيه انفعالنا، نخفي فيه حيرتنا، قلقنا.

- كان بودي أن يبقى قلبي جوادا لك.

رحت أتلفت حولي، الهروب بالعين تواجد بالقلب، وعصفورة شغلت جانبا من تفكيري.. تتنطط في عنفوان وحيوية.. تمنيت أن أكونها.

- ألم هائل يعتصرك.

- ألا تدركه؟!

- ليست المرة الأولى التي أراك فيها تتألمين.

- الآن طعمه يختلف.. قل إنه حزن طفل فقد لعبته الجميلة.

قلت ضاحكا أخفف عنها.

- أرجو ألا أكونها.

- إنها تسقط حين تبلغ مدركها الزمني.

- أيعني أنني سقطت!!

والعين ملأى بالحنان، أبحث عنه في عيون الناس فلا أجده.

أن تكوني صغيرة وتحملي كل هذا الحنان أمر لا يصدق. لكنك خصصتني به. غصت فيك لأني في قلبك طفل لا يزال. وأنني ناكص دوما إليه ربما لأنني لم أعرفه. يد هائلة اعتصرت قلبي حين عجزت أن احتفظ بأمي، كنت الأم الطفلة، كنا نلعب كأطفال وفي النهاية تؤدين دور الأم.

- احترت فيك.

- لم؟

- فيك أعيش طفلا؟

- وفيك أحس بأم لم أرها.

ينبسط وجهك. تأخذينني جريا، وفي جريك نرقص. وأنا الذي أسير بحساب، وتصنعين العالم بالضحكة، وأنا الذي أرقب العالم في حذر الشيخ، تصعدين بي الطوابق، وأنا الذي يمسك قلبه خوف المحظور. لك ولع بالأطفال وأنا الذي أرقبهم في تحسر.

تضعين يدك على أية طفلة تمرين بها، ولو على صدر أمها وأنا أغمض عيني على عالم كان قاسيا.

– أذكر أننا جددنا هذا الأمر.

– تلك لهجة غريبة.

– كان ذلك مريحا.

– ألا زلت كما أنت؟!

– كما أنا.

ظللت تنظرين إليّ وعيناك دمع سيال. لم أقو على إيقافه. وامتـــدت اللحظة امتدادا هائلا. دلت الأشجار حوالينا أغصـــانها مولولـــة. كفـــت العصفورة عن الصوصوة. طيرت هبة ريح الورقة الصفراء، وهدر النـــهر، وعلا نشيج من طاولة بالقرب منا. ونهضت. أستبقيتك فأبيت، لكنك قبل أن تمضي نظرت إليَّ.. كانت في العين أسى لم أره.. وكفـــك لا تـــزال في كفي.. أخرجت الكلمات غصبا. وكنت تقتلين الحياء فيك.

– أممكن أن أراك؟

والفيضان يكتسح، وهدير القلب يطغى على موج النـــهر العفـــي.. ونقطة العقل عندي تتلكأ.. لكنني ذبحت نفسي حين تمتمـــت في صـــوت غائم.

– ولو على التليفون.

وحين مضت، بكت العصفورة ونفرت، خلعت ملابسي ونزلت النهر، أضرب النهر فيقهقه، أعوم فاسقط، أرمي الذراع فتتصالب. وخيالك رقراق على صفحة الموج. ونقطة الشهد ذابت في ملح العجز.

في الليل.. تكثر الحشرات

أبث إليك حزني، أنت القلب الهائل، العاصر والمعصور. الضارب والمضروب، الصدفة الصدئة خازنة المارد أنت. الكاسر قشرة الكلس ليخرج المارد دخانا أسود يتلفع به الكون أنت.

الهوام إحدى خبطات قبضتك. وارتعاشة الأنفاس مسرى بخارك القاتم، وسكونك المظلم، فيك أحس أنني خيط قاتم، منسوج في شبكة خرقاء، يندلق منها الإحساس هادرا وميتا. حين تفرش عباءتك لتحتوى الكون يضيع فيك عالمي. ولدتني أمي في عتمة ليلة شتوية الألم. قالوا إن ظلام الحجرة تجمع نقطة مصلوبة السوداء فوق جبهتي. قالوا إن ظلام الحجرة تجمع نقطة مصلوبة السواد فوق جبهتي. من يومها تلازمني كظلي. تحاكيني. تعاتبني، تصفعني في أكثر الأحيان. بخارك الليلي يا ليل..

أنفاسي تترى محروقة بعصب الحس المشتعل، مدعوكة في جدران صلدة. وأنت الثائر الساكن الداخل. تعربد فوق الرءوس. تدخل الشقوق، تعبث بالأشياء، أنت وحدك من يعرف المخبوء. أنت ذاتك تحمل من القدرة ما تجعلك تدلف إلى أدق الأشياء وجودا. برغم أنها في النهاية قد تشابهك ظلمة واسودادا. تبني فوق الأشياء عشا لك. أقدامك تدهس مكمن النبض. وتتمدد تقطع أظفارك السيفية خيوطه الدموية، وتتمدد، يتخثر الكبد في التجويف، وتتمدد. تجحظ العين كحبة الجميز، وتتمدد تدلق من

المآقي صفح الدمع المغتصب، وتتمدد، تلوي العنق تكسر الظهر، تشد الساق، تكبس فوق العصب الثائر، وتمدد.

لا أقوى على الحراك. الرجل الغاضب عاصف. والريح الشتوية تجتث من الخصب البذرة. ماذا يحدث لي؟.. أسير في طريق مسدود، والنهاية منحدر صخري ناتيء.

....

حين نزعت ملابسي في فجر اليوم الأول لأغوص في بحر الأيام أضرب البحر بعنف، أستشرف من أنف الماء نقطة ضوء، حزم السواد الأفق، وتلون الموج في قتامة لون متدرج، تفتت الحزام، كثرت الأحزمة دوائر سوداء مظلمة تلتف وتدور. الأرقش يتلوى، وفحيح الفك لسان وناب، وأنفاس سامة حارقة. وأنا أضرب البحر، تدور عجلة اللون من دوران الماء. يضيع معنى اللون، يتكون الأسود، وتهدر الموجة، غول بألف جناح، وألف قدم، وألف رأس، عيني تاهت في المرأى.. قلبي نط إلى الحلق فاسودت الشفة. ضعت في الموجة. الموجة كتلة ظلام رطبة. قالوا حين أخرجوني إلى الشاطئ أنني كنت أصرخ في عنف النهاية.. الليل.. الليل.

....

– أحبك.

– وأنا.

– أود أن نبني عشا وردي الضوء.

– أتمنى.

– أملأ المكان نورا لا ينطفيء، ووردا لا يذبل، أدور بك في كل الزوايا.. أرسمك على كل الجدران، أضع بصماتك على كل حس، أحلـــق بـــك، طائرين صغيرين، ينهضان من صحوة الزمان لصحوة الوجود.

– ومراياك؟

– تعكس ألف صورة وصورة.

– وصورتك!

– صورتك.

– وأنت؟

– لك إلى الأبد.

– والزمان؟

– جواد ينطلق.

– والأيام!

– نعصر حلوها.

– ومرها.

– نلفظه.

– والنواة.

– نزرعها.

– أين؟

– في الحشا.

– لم.

– لتثمر.

– ماذا؟

– طفل الأيام المرجو.

– متى؟

– حين نشاء.

– والمكان.

– بستان وردي.

– وأنت؟

– وردته بالطبع.

– وأنا.

– ساقيه.

– وهو؟

– من؟

– وضح.

– هو.

– وضح.

....

لكن الوردة الحمراء كانت خرساء على الطاولة.

....

يرشح المقت من النظرة، تنطبق العين في التواجد على شكل زمني مسلوخ منه عمر الأيام. الجلسة في سكون عبث بالقدم، وهو ما كان يتحسس طريقه تحت الطاولة ليلمس حافة الساق ويدغدغ الشعر المنتصب بفعل التهييج. هذا المتكرر دوما لا أعرف له تفسيرا. أن يصحو الإنسان من حلم لذيذ، فإذا الأشياء صلدة، وإذا الزي تغير، وإذا الجموح بلادة، ولذة الإحساس ألم. والوداعة شبكة عمياء مخروقة النسج، صمغية الخيط. ينضح من البسمة الكاسية، الفارشة الوجه المتقلص ضحكة خالصة. خبطات الأدراج من الحجرة الأخرى. صحو همسي موءود بوجودي. صفقة الباب إشعار بالتواجد حتى في لحظة الانفصال الوقتي. الذراع الممتدة في نشوة الحياة ترتمي في خدر الاستكانة. الكف البض تداعبه، تلمسه، أصابع ممسوخة بصدأ الزمن الشائخ، لكن لها رعشة، تنقبض الكف في توتر.

«ضاعت في العين البراءة، وانتفض، أنهض، العرق يغسل جسدي كله، أبحث عن الصوت الخارق طبلة الأذن.. لا جدوى.. فالصمت له

هسيس الصراصير المقلوبة على الظهر.. يرعشني الصوت.. لا يزال.. مطرقة الحداد على السندان تلوي أسياخ الحديد المبرومة.. وأنا يلوي عنقي صوت مشروخ، مسموح، محموم، كاو. أتلصص بالعين والحس، والقلب.. أبحث عما حولي.. لا جدوى.. لا جدوى، أحدق في الفراغ.. في المكان.. فلا أجد سوى سكون الليل الميت، والجسد الملفوف بعباءة ظلمة ليلية ساكنة».

والعين الأخرى تراقب، تسخر، لكن من يعي وسط دوامة موج عاتية، الضحكة نصل. الثوب الملتوي، الكاسي، المنحسر، الكاشف متمرد. طلاء الزينة دهان يكون حين نذهب، الوجه العاري من مسحة الجمال حين أكون. العري في الزوايا مسح من قلبي الرغبة في المواصلة.. التجمل هناك، والجدب عندي، وصدأ الزمان الشائخ يضحك ويتدلل، ورد الفعل ابتسامة الرضا، وأنا ألحظ في اكتواء قلب محترق بالنار.. من يدري حتى الآن كيف يرشح من النفس رهيف الشعور.. طأطأة الرأس معزوفة اتفاق قلبي منتظر لحظة انشغال. طير هي محلق الجناح. وكان يجب أن يكون معي ألف جناح.. تدور في المكان الرطب نشوى، انسحب منكرا ولا تدري.. العين التي لا تعرف كيف تبصر عمياء. والعين الأخرى تنظر في دهشة الغل، ورفرفات الستارة، تدمن ملامسة الأصابع بطراوة البدء، لكن من يدري أنه البدء فقط!!

....

على سور بيتنا القديم بيت حمام، الهديل ينساب في تناغم صوتي محبب ومتواصل، تسبيحة القلب الغريزي. منقاران مـــدببان صـــغيران حلـــوان يندسان في التجويف ولا انفصال. الحب المخـــزون في حوصـــلة الســـعي اليومي، ينتقل عبر ممر ضيق متسع بفعل التعاطف الحاني. ورأس الذكر يهتز حين تبخ بالحب في فم الأنثى. والعين ضاحكة، تتحرك حواليها بتحركات رقبة لينة تعكس ريشها الناعم ضوء الشمس الأحمر. رهافة ريش متمـــوج على صدر الحمام. يهشان معا، ترفرف الأجنحة معا، ينثال عبير التواجـــد الحيوي المكشوف حين يغيب، وعتاب المنتظر حين يعـــود، ودلال حـــين يقترب ظل معها. يحاورها، يأتي لها بحصاد المنقار الأخضر الصـــغير، يـــرش حولها حبات خضراء مغسولة بدم التجويف ونبض الصدر. حـــتى إذا مـــا شعرت أنه هو.. وأنه في طيرانه لم ير غيرها.. حتى إذا ما شعرت أنه هـــو.. وأنه في طيرانه لم ير غيرها.. أقدمت عليه متهللة، فاردة الجناح، وتنميـــل يرعش العصب، وينفش الريش فتسترخي، ويفور الذيل والجناح مـــراوح هوائية ترطب المكان له.

«أين هي منها..».. أصابع الأرجل الرقيقة، الدقيقة، تثير الحس حين يمسح جسدها برأسه.. ولا أدري هل كان حمامنا من نوع غريب؟.. يضع رأسه تحت الجناح وينقلبان، تائهين في دوامة لحظة لا تتكرر، حتى إذا مـــا حط طائر آخر، استبقا إلى زاوية أخرى للوله الذي لا ينطفيء.. وغبت.. وعدت.. ولم أر الحمام قالوا هربت مع آخر ومات الحمام غما وكمدا.

– كانت تحبه.

– وهو أيضا.

– كان يسعى اليوم طوله ليؤكلها.

– وكانت الأرض جناحها المفروش.

– من كان يراهما لا يتصور ما حدث.

– لا تهتم.

– كيف لا أهتم؟

– «ليس لهذا الحد».

– أما تأثرتم؟

– صعب علينا.

– فقط؟

– أنصب له مأتما؟

– ألم يبحث عن أخرى؟

– ظل منتظرا.

– لم تحم حوله أخرى!

– كثيرات.

– رفض!

– الكثيرات.

– كان رائعا.

– غبي.

– لا تتهمه.

– الحمامات كثيرات.

– لكنه غيرهم.

– غبي.

– وفي.

– ظل ممتنعا عن الأكل.

– نحف بالطبع.

– حاولت والدتك ذبحه لأخيك الصغير ثم تراجعت.

– أمر طيب.

– كان عظاما.

– لم يغن إذن.

– لم يطر.

– أين كان.

– في زاوية القلب من البيت على السور.

– طوال النهار.

- وطوال الليل.

- لم ينم.

- ولم يصح.

- كان عظيما.

- لا تضحكني.

- حزنت له.

- هيا لنأكل.

- ليس بي رغبة.

....

حين تهيأت للنوم وأطفأت النور، وسحبت الغطاء، رفرف في جـــو الحجرة طائران، نهضت خائفا أعرف أن الأشباح لا تظهر إلا ليلا. النوافذ مغلقة، والباب أيضا ولم أر شيئا. لكن تموجات هواء الحجرة لا يـــزال.. لم أبرح المكان.. نقطتان سوداوان تتعلقان بالسقف، تنحطان بسرعة، الظلام دامس، سحبت الغطاء. شكل الطائرين أكثر ظلاما. رعب عني احتـــواني. في زوايا الأركان انسحابات لونية مسودة، تتشكل على الأرضـــية نقطـــا سوداء تتجمع. في مدخل الحجرة لطخة معتمة. أحكمت الغطاء. أصـــابع قدمي تتدغدغ. تنميل بالقدم، قرص بالأصابع. تقرفصت، الركبة مدفونـــة في الرقبة، حدقة العين مفتوحة على اتساعها. هسيس كعزيف الجن يمـــلأ المكان خبطات الطائرين تتوالى الليل رداء الحجرة. الليل كساني. لم أقـــو

على النهوض. اعترتني رجفة متواصلة. صحت في عنف مهتــز. وحـــين صحوت.. وجدت خفاشين متعلقين في سيخ حديد متدل من سقف الحجرة في الركن الأيمن. رميتهما بالوسادة. هبطا، لطما وجهي، واســود المكـــان ثانية.

.....

– ما عدت ترفرفين.

– لا زلت.

– لا أراه.

– لا تحسه.

– لا تهتمين.

– أنت صعب.

– أنت غبية.

– ....

– لن أضربك على كل حال.

– لا تقوى.

– من يقوى إذن؟

– ....

– هناك تفرحين.

– وهنا.

– مأتم حزن.

– لا لحظة.

– لأنك لست هنا.

– أين؟

– أنت أدرى.

– ما عدت تطاق.

– وما عدت أحتمل.

تنطلقين كالعصفورة، تغردين، تحيلين المكان حياة متدفقة، تتناجيان بخيط الجفن المستمر، وطريقة القدم على البلاط، وأنا أغلي من الداخل، ليس عندي ما يدفعني على الحسم، لكن حين ينفذ مخزون الجمل من الصبر ينفجر.

– لا تقتلني.

– أنت تقتلين نفسك.

– لم أتغير.

– ضحكتك المجلجلة من نصيب غيري.

– وأنت.

– الحزن كما قلت.

– حالات.

– تغلفين نفسك بالصمت..

– الصمت ليلي الدائم.

– والصمت سكيني الباردة.

– ....

– أين البستان؟

– لم ترعه؟

– من يرعاه إذن؟

– أنت؟

– كيف؟

– حين تفهمني.

– أم حين!!

– لا تقتلني أرجوك.

– أليس لك جناح؟

– ....

– تستطعين أن تطيري.

– ....

– سبقتك إليه الأخرى.

....

حين احتوانا المكان، تدحرجت على الجسد كرات الزمن الشائخة المترجرجة، هببت من نومي فزعا، الأنفاس تتلاحق، والسخونة صاهدة، والليل يصنع الكآبة، والليل قهر. كنا حين نجلس على الشاطئ، يداعب الريح شعرها، وتطبق عينيها على مرآي، وتتحرك الشفة بتمتمات الحب، ورغبة التواجد المستمر في بستان أخضر، كنت أحس أنني أملك العالم.. والآن لا أستبين الأشياء.. ضاعت من عيني، سرقتها الظلمة، وتدحرجت نظراتي على محتوى المكان. نقط سوداء شبحية شائخة الزمن.

مرسومة على الجدار.. أنهض بغل الموتور، أندفع، ألطم النقط الشبحية، أصطدم بالجدار، أترنح.. أسقط، ثم.. ثم أغيب..

عندما يجف النهر

«والنهر، كان حين ينساب.. ترقص الأشجار، وتعـزف الطيـور.. وتبتسم الشقوق في الأرض وتذوب.. وتحلو الخصوبة، ويكثر النسـاء.. ويغمس القمر، في ضوئه الشجر.. فيضحك الإنسان، ويهدأ الإنسـان.. والآن!! جف النهر وانتهى الأمر».

«١»

برزت من حدقته عين أثقلها الهم، والتوى عليه قلب كان ينـتفض، وراعه أنه ليس الوحيد الذي أخرجت الأرضي منه وقاره فبكـى. داهمـه جفاف النهر فلعن امرأته واليوم الذي رآها فيه، من منا يعلم الغيب، لكنه أحس أنه ليس عذرا فالتصق بالجمع ولملم نفسه، مع أنهم كـانوا يـودون سماعه، دخل معهم في حزام الحزن، وأدركوا بإحساس القطيع أن ريحا عاتية تطوح بهم، مع أن كل شيء قد ضاع وما عاد في اليد مال ولا في البـدن طاقة، ولا في البلد من يسمع.

– أليس من حل؟

– وكأن عبارته خدش في وجه قبيح فلزم الصمت.

....

أحس بالإرهاق، بعقله المكدود، وقلبه المفعم أسى، رأى امرأته جنية الليل تنتظر وهو العاجز في زمن العجز، فحسب نفسه وجلس على حافـة

النهر، أخدود طويل يتلوى، همدت حركته، وجف عرقه فلفظ أنفاسه ولم يبق إلا خطوطا عميقة وسطحية، متاهة طينية، زخم الطين الناشف يصدمه فازداد قلبه التواءً. لم يدهش حين وقع قصره على فئـــران تمـــرح، تطـــل الرءوس، وتمتد الرقبة، ثم سرعان ما تنطلق – طبيعة الفئران في كل زمـــان ومكان – فمن يكبح جماحها، هو موسمها تتكاثر فيه، ومن أدرانا فقد يمتد تواجدها حتى البيوت، وقتها من يقوى عليها؟ ومن يضـــمن ألا ينتشـــر الطاعون، فالبلد سقطت من فلكها الدائر.. والنهر حـــين يجـــف تكثـــر الفئران..

....

من يأخذ عمره كله حتى لا يرى المشهد، بل من يأخذه لقاء حفنـــة ماء، نحن نقدر عليه زمنا، لكن أيقدر النبت الأخضـــر، الأرض الشـــاحبة تولول، وعيدان الأذرة تعافر، تصارع الأرض – من يمسك عنا رزقنـــا؟.. لكنها – يا عيني – طرية كولدي.. أنبتت جذورها، مثلنا، وكانت الأصل. ها هي الأرض مطروحة على أرجائها، فتحت بطنها لاهثة، أبعدت ما بـــين أرجائها، لعل دفقة منه تتسرب إليها فتنضم عليها في رعشة نماء. مد يـــده، حضن العود الجاف الممصوص مع أنه لم يأبه مولده الجائع الباكي، تحســـس وريقاته الصفراء، المحدبة، المشرشرة، الحادة كنبات الحلفاء – مشت يـــده إلى التربة وجلة، أين النعومة؟ فراشي كنت حين كـــان يتـــدلل فراشـــي وأمسيت مشقوقة بالطول؟ الشقوق الطولية باتساع الأنهار تنتظر، ومرحت فيها الهوام، خشنة أنت ونتأت تضاريسك، جمدت، فتحجـــرت، وعـــلاك

الكلس وكنت تذوبين تحت الملمس رقة وعذوبة، وخصــوبة، واســتواءً. واشتدت قبضته على عود ممصوص انثنى ساقه، حتى وصل فتحة الشــق، فارتجف ورفع رأسه إلى السماء وبكى..

....

حين يكون المصب جافا والمنبع شرا، تبدأ الحكاية في التعقد، لم يطرأ على الذهن يوما أن النهر الذي يهدر منذ القدم يمكن أن يتوقف فجأة. كما لو كانت الشمس قد سقطت في حافة، أما وأن الوضع خرج عن نطــاق الظاهرة الطبيعية، فلا يملك الإنسان منا، إلا أن يحتج داخليا ويغتم لأنه – كما نحن – لا يملك غيره.

.....

لم يخش أن يراه أحد باكيا، لأن الكل يبكي.. وإن كان الشيخ قــد أنبه حين رآه طال عمره وسحبت منه الأيام فورة العاطفة.

– تبكي يا رجل.

مسح عينه بكم جلبابه وصمت.

– كلما رأيت رجلا وجدته باكيا.

– وأنت ألا يهمك الأمر يا شيخنا؟

جذبه بشدة وهو الضئيل النحيف.

– ليس بالبكاء تحلون المشكلة.

سحب نفسه ومضى إلى الدار، عافت نفسه الطعام، وظل صامتا يتملى ولده الصغير في حضن أمه وهو يتلوى صارخا، فلم ير فيه فارقا وعود الذرة الممصوص في فتحة الشق.. رنا إلى امرأته وقال في حدة.

– أرضعيه يا امرأة وكفاه صراخا.

ربتت الأم على كتف الرضيع، مالت عليه، وألقمته ثديها.. عافر، ضغط، امتص، عض، فضربته وعاود البكاء.

– قلت أرضعيه.

– هو أمامه.

– لا تدعيه يبكي.

عصرت ثديها وصمتت.

– حاولي.

– لا جدوى.

– لماذا؟

رمقته بعين حزينة عاتبة، وكأنه لا يعيش أيامه.

....

والتاع الرجل، أجاء اليوم الذي تجف فيه الجنية أيضا؟، ابنة النهر، موجة من موجاته.. وهل يمكن أن ننسى؟ فيه يتجرد العمر، ومن منا لم يتجدد بمائه، نخوض ونلعب، يلقانا فاتحا ذراعيه مصفقا، عنده تبدأ الحكاية

وفيه تنتهي، يا نهرنا.. شهدت مولدي، في ليلة قمرية، غمس القمر فيك ضوءه، فكنت مبهرا، وغسلت مياهك الوضيئة قماش عمر، وأتيت بها لي، جنية الليل المستورة، وكشفتها، أخرجت منها أجمل ما فيها، كان قلبها أبيض صافيا مثلك، قالت لي لحظة اللقاء الأول أنها خرجت منك، واغتسلت بك، واستوت من مائك، وتواصل تكوينها حتى نضجت، فعلتها سمرة خفيفة جذابة، والتوى عودها وامتد، وواصل امتدادها فاحتوتك.. أيمكن أن تكون نهايتها؟ أجفت من أجلك؟ أم جففت من أجلها، قل لي يا نهر.. أفيك بدئي.. وفيك نهايتي؟..

....

لم يقو على المكوث فخرج.. تمتمات الحزن تزاحمه في سيره وتعرقله، لو أن فينا من يفهم، ما حدث ما حدث. قل لي يا نهر ماذا نفعل وهم يسدون عين الشمس، نراك أمامنا تعريت، وتشقق جلدك.. أنهون علينا!.. أيمكن..!

ود لو صرخ لكنه كتمها دمدمة مهروسة تحت وطأة العجز. أمال وجهه إليهم، فبدوا جميعا كما لو أن عصا سحرية مستهم جميعا.. العيون مثقلة، والأيدي مدلاة، والعصب مقطوع أو كاد.. وكأن سهم الله نفذ.

.....

– اشتاقت الأرض له.

– لماذا يحرمونها منه؟

– رؤية الذرة في الغيطان تقطع القلب.

– الأعواد، أولاد.

– من يحييهم؟

– من يحييهم؟

– من يجود عليه بجرعة؟

– من يجود علينا بجرعة؟

– من يملك مشاعرك سواك؟

– ألا نستطيع فعل شيء ونحن عصبة؟

......

وحين نطق، مالت إليه الرءوس، وسرعان ما تدلت وغزل الحزن قماشه مطرزا، ولفه حول الأعناق فانحنت القلوب.

.....

وطال الجفاف كل شيء كأنه طلاء، وانفجر المخزون من الناس لكنه ولى هباءً.. والنبع في كل شيء جف.. النهر والجنية ونحن، أقمد الحياة وتنعدم. لمحه في عتمة الليل يدب خفيف الوطء، على كتفه شاله الأبيض، وخرجه الممتلىء.

– إلى أين يا شيخ؟

– وطرح الشيخ بعصاه.

– أهو أنت؟

ومضى، فنهض وسار بجانبه.

– أعطني الخرج.

– ومن يحمله عني طوال الرحلة..؟

– أراحل أنت؟

تنهد الشيخ، فالهد عصب الرجل.

– وهل لنا خيار.

– يهون عليك عمرك كله.

واجهه فلم يقو الرجل على النظر إليه، فلامست العين القدم.

– لقد هنا على أنفسنا.

– الآن النهر جف؟

– النهر لا يجف بذاته.

– من يصدق أنك ترحل وتترك الأرض.

– ومن يصدق يا بني، أنك في أرضك منبت الجزر.

سارا وللصمت هسيسه، وتوقفا وللقلب نبضه، وترك الشيخ يمضي.

«٢»

انكمش الناس، وراء بوابة ضخمة من العجز، تطل من ورائها العيون تنغرس أقدامهم في الطريق، ينكفئون، مع أن القمــر في الليــل ســاطع.

تتلاعب أشعته اللبنية فوق شفاه الأطفال. لو أن الزمان يسحب غطـــاءه. ويعود إلى الوراء، حين كانت البلد بكرا، لو أنه يعود.

....

النهر هو النهر، والغيطان هي الغيطان، والإنسان قد تغير، غمضـــة عين تتوه الأشياء كلها، وتتدثر في دثار الرهبة والقنوط. كنا يوما ما نعانق الشمس فماذا حدث لنا؟..

حط شاله على كتفه وصعد السلم حتى أعلى الســطح.. البيـــوت مغموسة في موجة قمرية، لكن القمر بدا في عينه مطموسا بكف معتمـــة. لوى رأسه في احتجاج وأدار ظهره إليه وجلس.

.....

في البدء اغتسل في النهر وسبح طويلا، وســـلوكه الفضـــية ترشـــه وتغمره. وفي السحر قصدها، لبس جلبابه وقصدها. كانت الدنيا تـــرقص له. ترنحت أمامه الأشجار سكرى بريح الفجر، مد يده فلمـــس حـــواف الشجر، والتقم حبات الجميز، وتدحرج الطريق تحت قدميـــه، وكانـــت تنتظره، جنية النهر، حسها يشتعل رغبة، أنفاسها حارة صاهدة، وزخم الماء والجميز وحواف الشجر، وأوراق الذرة، غلالة أثيرية تدفع، تدغدغ الحس وتخدره، مسحت عنه قطرات النهر، وتأبت عليها رائحة الجميز والـــذرة فاستحت، وحين احتواهم المكان – نفس المكان – وسط الهشيم، دبدبت العيدان وتشابكت في هسيس حيي، حتى القمر نفسه كان يســـاقط نتفـــا ضوئية باهرة – من لنا به الآن؟ يذكر.. زال يذكر وقتها كيف كان الوهج

الساخن يشع من عينيها – وآه حين ينطفيء الوهج – وحين عزفا سـويا معزوفة الأبد.. كان كل شيء قد تحول، وتناغمت الأصوات والألـوان.. يذكر كيف كان الكون ينبعث منه نغم قل أن يتواجد مثله. طائر اللقلاق، نجوى الحمام، أصوات العصافير، مداعبات الدجاج.

وانحطاط السمان، وخبطات النهر، وشوشات النجـوم وهمسـات المكان، دبيب الهوام، دقات الزمان، وأصوات القمر اللونية.. وهي جنيـة هري الحلوة تتناغم رعشات وسط الدفق الصوتي المنساب.

.....

– أنت رجلي الذي يملأ الكون

– أنت امرأتي التي ترقص للكون

– هري المنساب.. أنت

– وأنت امتداده الخصب..

– ما أحلى أن نذوب على أوتار مشدودة.

– وأرتخيها على أعصاب مشدودة.

....

وماذا يهم بعد، في زمن جف فيه حلق الإنسان، أن نظـل نـرقص للكون الموت. ونعزف على أوتار الأحشاء الجافة.

....

حين شده صوت الليل وعتمة القمر من وطأة الزمن الأول شعر أن كابوسا يضغط على صدره، ويعصر النبض منه. لو تدوم الأيام، لو يركب الإنسان متن الشعاع ويغوص في عالم فضي. ومن منا يعلم الغيب، كان يوما فكرت فيه أن أمتطي الشعاع وأرحل، كان الرزق شحيحا، والعمر يمتد، وليس في الكف ما بقى سوءة الأيام، كان حلما أن أركب الزورق وأقطع النهر إلى الشاطئ الآخر لعل بلدا جديدا لم يتلوث بعد.. لكنها شدتني بأمراض عتية.

– وتتركني.

– ستأتين معي.

– وأرضنا بلدنا.

– الرزق شحيح، والعمر يذوب منا.

– ومن يضمن أننا سنجده هناك.

– نحاول.

– والنهر واحد!

– حتى لا يأتي وقت نندم فيه.

– وهناك تجد الأرض!

– نزرع.

– ويذهب صاحبها بالمحصول فلا يبقى لنا شيء ما بقي الدهر.

- خير مما نحن فيه

- ألا يمكن أن تتغير الدنيا.

-........

- لو خيرتني، اخترت البقاء.

- ....

- لا يزال النهر يجري.. وجنيتك إن خرجت منه تموت.

....

لا يدري كم ظلت عيناه عالقتين بها، نفضه الهم فكرة مرآها. وهو من كان لا يرتاح إلا لرؤياها.. شعرت بإحساس المرأة الخفي، بداخله الذي يمر لو باستطاعتها أن تحيل العالم جنة وارفة لفعلت لو تقدم على صنع كرسي من الأبنوس المطعم بالعاج كما سمعت في الحكايات، ليجلس عليه أميرًا لفعلت، أما وأنني لا أملك سوى حبي فلي الله. قامت وأحضرت علبة الدخان، وصنعت له سيجارة وحشتها بكمية وفيرة من التبغ، لعل فيها العزاء، لكنه بجانب عينه لم تنته الرعشة الخفية التي سيطرت عليها فتناثر التبغ.

- أبقي عليه فمن يدري؟

والصمت معتم، عتمة الكف التي لطخت وجه القمر.

- دخن، وانس قليلا، وتذكر الله.

– ما يحدث لا ينسى.

– ما باليد حيلة.

– كانت معنا

أحست أنها لو زادت كلمة لتحول الرجل إلى جموحه المعتـــاد هـــذه الأيام فلزمت الصمت.

.....

من يدري فقد يصبح الصباح ويجدني قد مت همًا منه لو أن البركان فار، وانحطت السماء على الأرض، ما يفعله لنهر جف ماؤه، أقام الـــدنيا على رأسي كأنني المسئولة عن جفاف النهر وامتلائه، مـــن منـــا لا يبغـــي الامتلاء.. أموت لو لم أمتلئ به.. كم جفت الينابيع يوما، وظللت جنيته الخصبة. والنهر سيفور، لابد أنه سيفور.

– ما العمل الآن؟

– لابد للمشكلة من حل.

– والحل ليس هنا.

– أنتظر الحل من هنا.

– كان الحل هناك لو أطلعتني.

– قلبي يحدثني أن هناك فرجا لكربتنا.

– فرج!! جف النهر، والتوى الـــزرع، ودلى أوراقـــه وفتحـــت الأرض أفواهها.. وجف.. جف وجف حتى ثديك.. وتقولين فرج!

- كل الناس يعيشون المحنة وليس هناك خيار.

- ....!

- لا تهني! فأنت تعلم أنه ليس في يدي شيء.

....

حين يحاصر لا يملك إلا الاستسلام فمتى يهتز فيه النبض ويقوى، متى يهتز فيك النبض ويقوى.

...

حين أحس أنه قسا عليها واشتد، جنيته التي أتى بها من النهر وسواها، غاص قلبه، وكثيرا ما يغوص هذه الأيام.. فما عاد للأيام طعم، والصغير كعود الذرة يحتاج إلى نهر.. والبلد معزولة عن العالم لا يدري بها أحد، ومن يدري بها؟ سقطت من الفلك الدائر وسقطنا معها، هزه بكاء الصغير فلان قلبه والآن صوته.

- الشيخ رحل.

- ضاع الصوت، ولم يخرق القلب.

- قلت الشيخ رحل.

- نظرت إليه فهالها الهمود يرين على وجهه.

- لم يبق من عمره شيء للرحيل.

- بئس، وما عاد يقوى على الأمر.

ربتت على ولدي فاستسلم للنوم.

- يجب أن نفعله مثله.

احتضنت ولدها وزمته، وصرخت فيه.

– تقصد، هرب.

الصوت النيلي المنساب أصابه الجفاف فانشرخ فهاله الأمر.

– فعلها الشيخ وسيفعلها الكثيرون.

– لا ترم بولدي إلى المجهول.

خرقت قلبه، هزته ونفضته، رفع رأسه إلى السماء تدحرج القمر في عينه، وتقاطر ضوؤه دموعا، حملق فيه بانبهار، ود لو يزيح الكف التي تلطمه ليعيد له بهاءه فيغزل من ضوئه قماشا مطرزا لولده ولجنيته السمراء ذات العود الملتوي، ورنا إليها فأحس أنها تناديه وسط العواصف تناديه، أقرب ما تكون إليه، وضع يده على شعرها، واحتواها، ود لو يغسلها بماء النهر صلب عينه عليها وسرعان ما بكى، أخذته بين ذراعيها وعينها لا تفارقان القمر.

....

كنت يوما تمسك الفأس، وتعكس ضوء الشمس.

فلماذا يا رجلي..

حين تغطي وجه الشمس.. غيمة سوداء..

ينسحب منك الفعل..

وتقعي تنتظر الضياء.

الطبلة

«١»

عند منحنى الحارة، وقف.. عيناه لا تستقران، ومقلاعه يتلـــوى في يده، يلوح به في الهواء، يضرب به الفراغ، يحاول أن يحشوه بحصاة مدببة.. أسند جذعه على الجدار وأخرج بلحة حمراء، ظل يدعكها حتى هرســـها ثم نثرها على الأرض. لمح حبل النمل دقيقا ملتويا أسفل الحـــائط، ونملـــتين تحاولان في عزم واضح الدخول – بنصف حبة قمح في شـــق مغمـــور.. تسحب في صمت، وحدق فيهما، عز عليه أن يرى النملتين تجاهـــدان في حمل نصف حبة القمح.. عطف عليهما.. وجمع فتات البلحة المهروســـة.. وملأ الشق .. ارتاعت النملتان.. ثم انفرط حبل النمـــل.. وعجـــز عـــن الوصول.. اغتم في نفسه حين رأى التشتت لكنه.. حـــين أقـــام ظهـــره واستقام.. اعتقد أنه سيعثر على شق آخر لا محالة.. اصطدم في بحثه بجسد ضخم، استدار فواجهه وجه الشيخ. ابتسم لكن الشيخ تجهم. حـــاول أن ينطق لكن قبضة الشيخ حين جذبته أماتت فيه المحاولة. نفضه في قوة وقال.

– تعلم الأدب.. واحفظ لسانك.

ساحت معالم وجهه، وابيضت عيناه، وتهدل شدقه فـــأزاح لبدتـــه، وأصابه همود مفاجئ.. وتمتم.

– ماذا تقصد؟

عرك أذنه وأطبق على فمه حتى لا يصيح.– لسانك ينالني، وتذكرني بالسوء.

– لكنني أبله.

كبس لبدته فوق رأسه وطوق عنقه بمقلاعه، ووضع في سيالته حفنة حمص.

– لأنك أبله فلا تتحدث عني..

هرس حبات الحمص وطيرها في الهواء.. واستحلبها حبة .. حبة.. وهو يحدق في الشيخ.. وطيف ابتسامة لاحت فاعوج شدقه، وسال لعابه.. وقال في حدة.

– لم أتحدث عنك.. تحدثت عن رتيبة امرأة شيخ البلد.

نهره الشيخ وسحبه من يده، طلب منه أن يتركه ليبحث عن شق جديد للنمل.

– حرام أن يضيع النمل ولا يهتدي إلى بيته وأتحمل أنا وزره..

– وأنت عارف بالله.. يا شيخ.. النمل سيموت.. حرام..

واشتد صياحه، ولوح بالمقلاع.. ووقف ني العين وتصلب الرمش.. فخاف الشيخ الفضيحة، ومضى.

.....

في القوالب في الطين.. وقف العارف بالله.. «تقولون عن الشيخ أنه العارف بالله» يتذاكر، يتمايل.. تتساقط من شدقه رغوة مزبدة، يتصارع على لحسها الأتباع، جريت أمي رغوتي – فأنا الآخر لي رغوة تسقط من شدقي – على أحد أن يمتصها، وحرصت أن يعلو صوتي، وأنغم ذكري، بل حرصت على إخفاء المقلاع حتى يسهل الأمر.. لكن الأتباع أحاطوني.. ضربوني فسقطت، وحين قبعت تحت قدميه، شممت رائحة عطر، كان عطر رتيبة.. كانت تدعك جسمها به حين تدعوني فيعلوا على رائحة السباخ في جسمي.. «وحين ذهبت إليها حزينا أخبرها أن العارف بالله يتعطر بعطرها.. صرخت في وجهي وناحت بالصوت.. طلبت من الناس أن يغيثوها.. فقد تجرأ الأبله.. ومد يده.. وحين دار العارف دورته.. درت – تحت قدميه – دورتي، فرد كفه فسقطت قطع النقود، فردت كفي، كانت كفه مخروقة، وكانت كفي صلبة.. طلبت عواطف من العارف اللبوس، ففزعت صارخا: يا شيخ.. النمل سيموت حرام..

وفردت مقلاعي وطوحته.. طارت عمامة الشيخ العارف بالله فبكت النساء. ما ذنبي أنا.. الرجال يخاصمونني.. ما عادوا يذكرونني باسمي.. أبله.. أبله.. كيف أكون السبب في بكاء الحريم! يخاصمني الرجال من أجل الحريم.. الحريم تبكي لأن اللبوس المغموس برغوة العارف بالله جف، ونضب، وما عدن يذهبن إلى القبو المبني بالطين، ليودعن قطع النقود، لهن الحق.. صحيح لهن الحق.. وإذا لم يكن على رغوة العارف بالله البكاء فلمن يكون؟! لكن ما شأن الرجال.. صحيح ما شأن الرجال؟».

«٢»

دوت الصفارة، يذكرها من بين جميع أنواع الصفارات، فهو لا ينسى رنين صفارة «الخفير العُجر. طالت رقبته وظلت عيناه على اتساعها، خدش الصوت السمع، زحف الرجال والنساء والصبية، هلع ينضح من العيـــون وغبار يتطاير في الجو، خبطات الأرجل والأقدام هرولة صاخبة، لمح امـــرأة تولول وهي ترمي طرحتها في الهواء، يركض البعض تجاه الحارة الأخـــرى و«الخفير العجر» يسرع نحوه ورنين صفارته لا ينقطع وعصاه الخيرزان تعلو بينما تقبض يده اليسرى على ذيل جلبابه فتبدو تكة سرواله تدور وتلتف حول ساقيه: قطع عليه طريقه ملوحا بمقلاعه.

– ماذا جرى؟

نحاه بقوة، لكنه خطف صفارته بسرعة وظل يدور حول نفسه وحول الخفير.. يصفر ويصفر.. ويصفر..

– ليس وقته يا أبله.

زغده بشدة فصرخ بحدة، كما لو كانت صرخة قد خرجت لتوهـــا من مستنقع الألم.

– تزغدني يا خفير يا عجر.

لم يمهله، صفعه، كور بصقة ورماها في وجهه ومضى يهرول.

– يا أبله.

حين مسح البصقة أراد أن يرمش فاستعصى عليه الجفنان وسرعان ما طوح بمقلاعه فأصابت الحصاة مؤخرته.. وقف يهرش وهو يكز بأســـنانه،

وهو ينفجر من الضحك، يخلع لبدته، يقذفها في الهواء.. يخبطها بـــالأرض، يذبذب برجله كمهر شقي – يفتح شدقيه، يتلوى لسان علـــى الجـــانبين، يمسح رغوة مكومة حول الأشداق، لحس حافة شفته السفلى ثم ضـــحك ضحكة متواصلة، مرتجفة، ومط صوته في تهكم.

– يا خفير يا عجر..

وقف يبتسم للناس، يتلفت يمنة ويسرة.. ينظر تـــارة إلى الرجـــال وأخرى إلى الحريم.. يمد يده ليوقف صبية أو صبيا، يود لم أن أحدا منـــهم رآه وهو يرشق الخفير بالمقلاع.. لكنهم يولون عنه في إهمال «فليس وقته يا أبله».. كبس عليهم، نفضوه من أمامهم، ولما أحـــس بهزيمتـــه انحـــنى إلى الشارع الخلفي.

«أنا المعشوق والمطرود، أنا العاقل والأبله، في المقابر يحلو اللقـــاء.. رحت وراءها، كانت القلب الأخضر الذي يحوطني دفئا.. أحس لزوجتـــه وصهره، أحس نبضه.. تأخذ يدي بين كفيها فأضيع في وهج العين.. بيضاء مدعوكة كالمهرة.. سرت وراءها يناديني صوتها، تتحـــرك فـــوق المـــوج والصوت حزين والآهة حرى، علقتني على مشجبها فعبـــدتها.. آوتـــني، أطمعتني، سحبت مني هوسي وأرستني على شطها، تظللني جدائلها، لم تكن مثلهن.. كن جميعا فيها.. فتميزت.. وحين تركتنا هوى فينا الهوى وضـــل القلب.. آتي وراءك.. مهووس القلب، مفقوء العين.. فأنت بدئي.. وفيك نهايتي.. بلون عينيك.. من يسمعني الآن؟

من يحدب عليّ؟ من؟.. أولول كالحريم.. وأطوف حولك.. والقــبر غارق في صمته الطويل.. وأنا ألف حولك.. والقبر يسعد بك.. وأنا ألف حولك.. والناس ينسربون.. وأنا ألف حولك.. لم يبق إلا صوت الصمت.. والحلفاء تتماوج فوقك تحتفي بك.. وصوتك يناديني.. وأنا ألف حولك.. لكنني لم تطاوعني نفسي.. فجثوت أمام المدخل.. لا تجزعي فسأظل أجثــو لك.. يناديني.. وأنا أجثو لك.. والنداء رهيب، وقلبي يجثو لك، نــاديتنى باسمي.. النداء همس وألم.. تتألمين.. وأسمع اسمي.. هــ.. هــــ.. لا.. ل.. هلال.. يأخذني الصوت فأفزع.. من يقدر أن يأخذني منك.. أو يأخــذك مني.. جثوت وجثوت وجثوت.. وفرشت أصابعي.. وحفرت وحفرت.. أكنت أريد أن أدخل إليك أم كنت أبغي خروجك!!

وغاص ذراعي كله.. و.. وانحط على رأسي دوي هائل.. اقتادوني.. من أين جاءوا.. وراءي في الحياة.. ووراءي في الموت.. من أين جــاءوا.. لابد أن تخبريني.. اقتادوني.. كتفوني وأخذوا مني اسمي.. أيمكن أن أفعلها؟ أيمكن أن أطولك في الموت وأنت العفيفة في الدنيا!! علقوهــا في رقــبتي وسحبوا مني اسمي..».

«٣»

الزحام شديد، والأصوات تختلط وتتعالى، صــراخ النســاء عــالي كنبابيت الرجال وفي الوسط والمقدمة، الجرادل والبلاليص، تهتــز فــوق الرءوس وتنتفض في الأيدي. والخفير، ينفخ.. يصرخ بصــفارته، يلــوح بعصاه. واستقام ذيل جلبابه.. أغاظه مرآه، فلف وسطه بمقلاعه، وكــبس

لبدته وعوج فمه، حين أراد أن يسأل رأى عواميد الدخان، وملاهيب النار مزمجرة غاضبة، دفع بذراعه الجمع، التصق في اقتحامه بمؤخرة امرأة، حاول أن يفلت فضغطه الجمع، خبطت الأرض برجله ولوى عنقه «زوجة شـــيخ البلد» ما لها والنار، مط رقبته وأدار عينه عله يرى العارف بالله، نظر إليها فانكسرت عينها، ومدت يدها تسحبه. مال عليها، همس في سخرية.

– ليس وقته يا رتيبة.

– الناس كلهم هنا..

نظر إليها في غل.. صرخ صرخة مدوية، لسعها بمقلاعه وغـــاص في الجمع. حاول أن يسخر، أن يضحك، أن يرمي من القلب الهلـــع.. لكـــن الفم ينطبق والعبسة تزم الوجه ويرتفع صوت خانق.

– ليس وقته يا أبله.

«ستطلبونني حين تحتاجون إليَّ، ستظلون تملونني، لكنكم تحقـــدون عليّ في داخلكم.. أنا الكاشف والمكشوف، أنا الداخل والخارج، العارف والجاهل.. الأبله والعاقل.. أنا.. أنا..»

واشتدت قبضته، لكن عنق الرجل كاد ينقصف، خلصته يد قويـــة فبانت العروق النافرة، وجحوظ العين.. طأطأ رأسه، واعتذر أن الناس في زحامهم لا يدرون ما يفعلون.. تتحرك حواسهم دون أن يشعروا.

«٤»

لم يدر كيف استطاعت هذه اليد الصغيرة الناحلة أن تقبض على يده وتحكم الضغط، نظر إليها فضحكت «وهأهأت»، كان صوتها له طعم حبة

التوت وفي عينيها وهج النجمة التي يسهر لها الليل طوله، دفعتها الأرجـــل فارتعب الوجه، قبلها وحملها على كتفه، أعطاها المقلاع تلسع به الرءوس المحتشدة.

– أين أنت!

خاض بها الجمع وهي تخبط صدره برجليها..

– انتظرتك في الغيط ولم تأت.

كان منظره يوجب الإشفاق، حطت عليه بلادة لم يعرفهـــا فحـــك بأصبعه أنفها..

– كنت أنتظر مساعدتك في «حش» البرسيم.

تاهت عيناه وعصلج لسانه ولم يقو على النطق.

– أين كنت؟!

قالها في دفعة واحدة كأنه يزيل عبئا ثقيلا.

– كنت أزور المرحومة.

– وكانت معك الطبلة.

– تركتها منذ ماتت.. وأنت تعلمين..

– سأنتظرك غدا.. وتكون معك الطبلة..

كورها ووضعها على رأسه، تنططت كما النحلة، حركت ذراعيهـــا كما الفراشة ود لو اتسع فمه ليبلعها، لتستقر في الأحشاء.. عند مـــوطن

القلب نبت المحبوبة، دار وظل يدور، وهو غافل عن الناس، فمن يدري قد تحدث المعجزة ويبلعها، لحظتها ستنمو فيه من جديد، ويحدث التكـــوين.. دار، ظل يدور، طار بها، واستمر يطير.

– سأطفيء بك النار.

صرخت الطفلة، وأجشهت بالبكاء، نتش رجل لاهـــث الأنفـــاس الطفلة منه. خبطة على رأسه، صاح فيه بعنف.

– ليس وقته يا أبله.

حين نظر إليها وهي تبعد عنه غاص قلبه والتوى عليه.

.....

«طفلتي التي لم تولد، أخذت مني القلب، ظلت تسري في الداخل ولم تخرج. رأيتها في وجوه الصغار، حتى إذا كبروا عادت ثانية لتأخـــذ مـــني القلب.. لكنها ماتت، وظلت هي في القلب، لن تخرج.. أحييها في القـــبر، لكنها لن تخرج.. وأنت امتدادها.. أكان يجب أن تفزعي.. كنت سأطفيء بك النار.. لم تعلمي أن ست الكل توسدتني.. كان قلبها وســـادة دفء، وعينها مخبأ يحلو لي أن أختفي به وأستتر برموش العين.. وأنت جاء شعرك كجدائل الصفصافة.. لكن أنفك مبطط كأنف أبيك.. مع أني حين لمســـته كان مدببا لأنه كان أنفها.. كنت سأطفيء بك النار.. أترين أنـــني حـــين قبضت على شعرك فكرت أن أطفيء بك النار!!.. كانت تلعب بشـــعري فأفرد مقلاعي، أعطيته لك.. وكان لها الراية كان سيفا حاصرت به «أبـــو زيد الهلالي» ضربت ذراعه، وشققت درعه ثم جززت رأسه.. كنت ألعب

تحت قدميها، وأفرك أصابعها، لكنها حين رأت الدم يترف فـرت مـني، وطوت الراية.. أكان يجب أن تطوي في الطفل، حين طوحـت بمقلاعـي ورميت الحصوة».

«أكان يجب أن تمضي وتلوي على قلبي..».

فرد مقلاعه وحشاه بالحصى، جرى وارتكز علـى نتـوء مصـطبة مهدمة، طوح به في الهواء، صادت عيناه الرجال يتدافعون صوب النـار، صادت عيناه الحريم يفرغن الماء، صادت عيناه الصغار ينكشون هنا وهناك، صادت عيناه «لسان» النار، وقفت عيناه، وتصلب الرمش، وتنطط نفـخ صدره، وعرى ذراعه، كان أبو زيد يشهر سيفه، ويمتطي جواده ويندفع إلى الأمام، يتحرك في كل مكان، يدور في الهواء ويترل كالصاعقة، حدق فيه ثم أرخى – بتأفف – كم الجلباب.. رمى بجذعه إلى الخلف، أمال لبدتـه إلى الخلف ولم يكبسها، عوج فمه، أفسح ساقيه، ثنى إحدى السـاقين وثبـت الأخرى، ورمى النيران بالمقلاع. وكلما حطت الحصوة على لهيب النيران كلما ضج بالضحك، لكن عبسة مستمرة كانت معقودة علـى جبهتـه، أحس أن مقلاعه أفلت عياره، وأن الحصى يطيش.. وأن النيران لا تـزال تزغرد.. وأن الناس بدأوا يتسلقون الحيطان، رموا الحب والقش والحـريم يرمين المياه، تطاير الهشيم ذرات نيران مبعثرة، أحس أن مقلاعه لا يطاوعه وأن رجلا يزغده في صدره ويصيح فيه.

– يا أبله.. النيران بجانب دارك.

أفاق إلى نفسه، رمى بنظرة قلقة رشح منها الهلع، النيران واندفع.

«الحريقة بجانب داري..! الحطب واحد، والتعريشة موصولة.. سأطفيء النار، سأدور كالنحلة فحركتي ليست لكم. حركتي للمخبوء في التعريضة، كنت أحين أنظر إليها ليلة التمام مستترين بتعريشة الحطب وشعرها الناعم منتشر مجدول بالعيدان، أرى الخصوبة فيها منكوشة، ودفقها باهرا، كانت العيدان ترتعش، وبقي مقلاعي مستسلما كابيا، كانت تحك أنفي – ولذلك أحك أنفك أنت يا طفلتي.. وتقول أنني أسع الناس جميعا.. لا تسيء الظن بي يا هلال.. القمر يجذبني إليك.. وأنت تجذبني إلى النهر، فرخان صغيران كانا يعومان. وينفضان عن جسديهما بخبط الجناح قطرات مياه عالقة.. لكنك وليت.. وليت ما خلفت، أكان يجب ألا تلدي لي طفلتي!!».

«٥»

بقفزة واحدة كان فوق الحائط، بقفزة أخرى كان وسط الحطب المتبقي. جذبه الرجال لكنه عاد – في عناد – يفتش، وكلما ينكش فيه، كلما ازدادت النيران اشتعالا، خاف الرجال، لكنه لا يبالي، دفس رأسه في عامود الدخان وأصر على النكش، ولما لم يجد الرجال جدوى من زحزحته، رموا الحطب فحط عليه، كادوا يرمونه معه لولا صرخة فرح شلت حركتهم، وكلمة زاعقة من بين شفتيه تدوي «لقيتها، لقيتها».. كاد يستسلم للحظة الفرح، لكن الأيدي امتدت وخطفته من عامود النار قبل أن يشويه، فر بسرعة ورفض، خبط بيده على الطلبة، قبلها وخبط عليها، طوح بها، وخبط عليها، احتضنها وهو يخبط عليها، والرجال يحاصرون النار، وهو أمامهم يتنطط كالنحلة، ودقات الطبلة السريعة إيقاع الحماس،

وكانوا كلما رأوه يدق على الطبلة، ويشير بالمقلاع، إلى الدخان والنـــار والحطب والهشيم، يتحركون في اندفاعة قوية، مسوقين إلى الحركـــة بـــلا وعي، كان المقلاع عصا سحرية، وكأن الدق إيقاع نغم، والنبابيت تضرب النيران، تخمدها، والأيادي تتناول الجرادل، والمياه تحاصر النـــار تطفئهـــا، وحين رأى النيران تخبو، وتتلاشى، ترك الطبلة ووضع الحصوة في المقـــلاع واعتلى قمة الجدار، مال بجذعه وعرى ذراعه، كان أبو زيد الهلالي فـــاغرا فاه، رمى بمقلاعه في الهواء – صرخ، فارتخت عضلاته واعوج فكه وســـال لعابه، لكنه نسي أن يكبس لبدته، كانت قد سقطت.. احتضن طبلته، نقر على جلدها. صاح بقوة «أين أنت» حاول أن يراها، أن يبحث عنها، أن يجد القبضة الصغيرة التي جذبته بقوة وسط الجمع.. لكنه عجـــز، انـــدفع وسط الناس، خاض بحرهم ومضى، كان يتجه صوب الغـــيط، لم يتلفـــت وراءه، كان مأسورا بنداء قوي يجذبه، والطبلة في حضنه نائمة مستسلمة، فلعله يجدها عند الغيط، ولعله في الصباح، يستطيع أن يساعدها في حـــش البرسيم، ويلعب معها على دقات الطبلة.

شعاع من الماس

الحارة غاصة بالجموع، النساء والرجال والأطفـــال. يتزاحمـــون.. ويصرخون.. الكل يهرول، والغبار يتطاير على الرءوس غيمـــة داكنـــة.. الصدور عارية، أخاديد الصدور النافرة الطرية تتشابك وشعيرات الرجال النابتة في الوسط، والصغار يزاحمون ويلتصقون، ويقبضون بأصابع صغيرة ذيول الثياب في تحد مترع بالخوف والدهشة. ثمة حدأة في الأعالي ركبـــها توتر مفاجئ فدارت دورتين وحلقت فوق الرءوس.. بدت الغيمة الداكنة في العيون الحزينة الكابية، خفاشا كبير يفرش جناحين هلامـــيين ويحتـــوي الفراغ وينحدر في تسلل منسرب إلى الأعماق.. فيطمس المكان والوجوه والنفوس بظل معتم كالليل.. وثمة فص من الماس يرشح من عرق الجموع ويأخذ من لهاث الأنفاس بعض حرارة راجفة، ويحسب من عيون مطموسة بعض نور مبهر يجاهد به أن يخرج إلى حزمة الضوء. وأنا أترصده من بعيد أرقب إبهار ضوئه المرتقب.

.....

– في الأمر شيء!

– عيني عليه..

– أولاده صغار!

– قالوا له من زمان.. إبعد عن عين الشمس..

- كان الشمس لها عين!

- عين كالجب الغويط.

- ومع ذلك تقدم وقالها..

- أكان يود أن يعيد نظام الكون؟

- عيني عليه..

- لا أحد يطول «أبو زيد»

- هو شقي.. وقادر.

- ربنا كبير.

- ولكن ظلمه طال!

- أكان يريد أن ينهي ظلمه..؟

- كان.. ولكنه قصف عمره.

- خسارة..

....

وصوبت نظري إليهم. وكان سمعي يروح ويجيء مع الأصوات الحادة والحزينة، وحين بدأ لي أن الحديث تحول إلى كلام.. ثم إلى فتات ملفوظ.. فار دمي وانتفض عرق الغضب على جبهتي، وفي لحظة واحدة، لحظة أن سحبت سمعي، وأدررت عيني بعيدا عنهم.. عن الوجوه الممصوصة الحزينة.. لحظة أن عاودني خيال قوى جموح.. واجهني شيطان قوي مكين،

لاح لي أنه يحمل ألف وجه ووجه.. كان وجهه الذي يقبض عليه خيالي ذا ملامح تستفز من يراها.. ملامح مرسوم بصنعة خالية من الدفء. بـــرودة تسري فوق الوجه، ويطل من العين نظرة متشفية، قاسية، تنبيء عن تحـــد وغلظة. وكان هو.. كان «أبو زيد» لم يختلف الوجه الذي استدعاه خيالي عن الوجه الحقيقي.. فقط كان وحيدا.. لا تحوطه الأتبـــاع ولا يتقدمـــه المنافقون.. وجه مسطح فقدت خيوطه معنى التجبر وأن أبقت على الغل.. وظل الوجه في عيني قائما لا يزال، حددته ندبة فوق الجبهة.. وشامة على الخد، وانحدار تحت الذقن، واكتناز في الرقبة.. وجه داوم على التسلل حتى وصل إلى قدر كبير من الثراء، وقصر منيف على ترعة البلد الغربية، لم يـــر الناس في هذا القصر إلا وجوها محمرة، وثيابا أنيقة، وعطرا يمشي حيثمـــا ذهبوا.. قال الناس عنهم وجهاء.. علية قوم.. أصحاب نفوذ.. وسلطان.. وكان الناس يفرحون أن أتى إليهم مـــن يـــرون صـــورهم في الصـــحف ويشاهدونهم في التليفزيون.. ويتحملون، ويغمضون عيونهم.. عل الزمان يصلح المعوج.. وظلوا صامتين يكبتون في صدورهم آهة تبغي انفجـــارا.. حتى بعد أن أصبح عضوهم المنتدب وأمينهم.. ثم عصر قلبهم حزن ثقيـــل أن يصبح أبو زيد المتحدث عن هموم الفلاحين، أكثر قوة وأثقـــل ضـــغطا وأشد تسللا.. فلم يعد في الجعبة صبر.. ورأيته في لحظة الحياة المـــوت – فحياته موت – رأيت عبد الغفار.. يتسلل منه في نغمشة خفيفة في البدء.. آهة، مخزونة مهروسة مطمورة تحت ركام الصبر والتحمل.. نفضت عنـــها وطء الضغط، فانفجر لها ينبوع ضيق، فاندفعت منـــه شـــلالا كاســـحا وهادرا.. وبات على الرجل أن يحمي نفسه من بطش الأمين، ولكنني رغم

هول الانفعال والغضب، رأيته – أيضا – يتسلل في تؤدة.. شعاعا خافتا ولكنه قوى.. خرج من حزمة الآهة.. له شكل الماس.. ولكنه لم يعد.

....

– لو بقي عبد الغفار.

– فيه ألف عبد الغفار.

وضحك الشعاع وتألق.. ولكنه كان حذرا فلم يبن عن نفسه.

....

قطعت الطريق مهرولا. وضغطني الزحام. وفي حارتنا لا ترى سوى الزحام. كأنما بالزحام يحس الناس ببشريتهم.

لكزتني أكواع صبية كمهاميز البغال، تعافر أن تجد فراغا يأخذها إليه في رقدته الأخيرة.. فهم لا ينسون حين حكت لهم أمهاتهم كيف قفز عبد الغفار قفزته العالية.. فبهت الذي كفر وأرخى بندقيته.. لحظتها كما تقول الأمهات – اندهش أبو زيد وقال في تأنيب معاتب.. إنها للصيد.. أدرت رأسى، مددت رقبتي شببت على أطراف أصابعي كي أراه.. أراه ممددا، غارقا في دمه.. أكحل عيني بمرآه الأخير، فمن يضمن لحارتنا أن تجود بواحد مثله عما قريب..! صفعتني «طرح» سوداء ترتفع في الهواء، وتحركها أيد عجفاء لنسوة ممصوصات.. بدت لي كأعلام الحزن وإشارات الغرقى.. وكلما شال الهواء «الطرح».. هب صرير أصوات تتندب في تآكل مغموس في نبرة حزن حارقة.. وظل الندب موصولا وموقعها..

واستدارت النساء وتحلقن. انتكشت الشعور الفاحمــة اللــون، وبــدت كسبائط الصفصاف.. وانفرجت السيقان، ومالت الجــذوع إلى الأمــام، وتلاقت الأكف في ضربات ذات أثر قابض.. وأنه انقباض نفس تسيل على أنامل الأصابع في حركة اهتزاز متواصل.

... ورصدته في هذه المرة ممزوجا في حبات العرق المعقــودة علــى الجبهات مشغولا باختراق الجبهة إلى الداخل.

....

– مات عبد الغفار.

– لم يمت عبد الغفار.

– ولكن الدماء تفرش الأرض.

– قل تغسل الأرض وتكنس القذارة.

– قتلوه في وضح النهار.

– ببندقية مستوردة.

– هي الحقيقة.. فارفع صوتك.

– أكان يريد أن يبحلق في عين الشمس؟

– ومن يستطيع؟

– عبد الغفار.

– ولكنه مات.

– قلت لك لم يمت.. فلماذا أنت لا تفهم؟!

.. وضحك.. رأيته ضاحكا، لكن ضحكته مغموسة في دائرة.

.... متحلقة حول الجسد الثاوي.. فعن لي أن أسأل.. كيف؟

.... يضحك في موقف البكاء. لكنه أطلق شعاعه فغطى على عيني.

....

وسقط عبد الغفار قتيلا لمجرد القول.. لم يصل الأمر به إلى الفعل.. لم يمهلوه.. كانت الآهة الحزينة الممطوطة مدخله إلى القول.. وكان القول طريقه إلى الموت.. وبالموت وأدوا الفعل الذي كان يمكن أن يصاحبه.. وكانت كلمته البسيطة حاسمة وحادة.. فحملت هذه البساطة تهديدا مباشرا.. فاختصروا الحاجز الوهمي واغتالوا البساطة.. «ولكنكم ستسقطون».. لم تكن هي وحدها التي أثارت الهزة وأشاعت الرجفة، ودخلت إلى الداخل فأبانت عالما مظلما وكئيبا.. ولكن النظرة الحزينة الغاضبة المتعالية التي رفعت خفيفة منطلقة قبل أن ينطبق الجفن هي التي قتلته.. قال كل شيء، فاحتقر من أمامه واحتقر زمنهم، فبان الهول طاغيا على وجه «أبو زيد» وقبل أن يعود إلى أهله ليحكى لهم.. ليقول.. ويتكلم عن صنم مصنوع. صنعته أيادي الظلمة، وخوف الناس، ترصدوه.. فلم تصل الرسالة ولكن الدماء أوصلتها.

وشققت طريقي، ووجدته.. كان الفم مطبقا، والعينين مسبلتين، وبهاء خافت يرشح من جبهته. ولكن شاربه المقصوص كان قد التوى وانحط ملتصقا بشفته العليا. وظل طرف شاله الأبيض مرميا على صدره في

ارتخاء.. طالته الدماء التي غطت صدره كله فبدا كالعرض المغتصب يطالب أصحابه أن يذكروه.

وحين كان الناس يخفضون رءوسهم كأنما يتقون عصيا يرونه، كانت عيونهم تتلصص – غضبا – في اتجاه الشارب وطرف الشـال.. لم تفـتني الحركة ولم أغفل تلك العبسة التي ارتسمت على الجباه، ولا تلك الكـزة التي خرج مجروشة من بين الأسنان.. وراجعني طيف ذكرى صنعت للقرية يوما من أيامها، ولكنه كان يوما عبوسا.

«رآها فارتجفت وتكومت على نفسها، كانت متهدمة تتآكل نفسها وتتهرأ، دست رأسها بين فخذيها وأنت، وسافر الأنين إلى قلبه فأوجعـه، ربت على رأسها، وكتفها.. نظر في عينيها فانهار فيداخله بنـاء بأكملـه، ولكنه تماسك، أدرك أن هولا حدث، وأن البنت.. ولم تطاوعـه نفسـه.. فقعد أمامها.. ومد يده ومسح دمعاتها.. سوى هندامها.. وابتسم، ولكـن البسمة كانت غصة، فاحتقن الوجه وازداد البكاء.. حاول أن ينهضـها.. فعجزت.. رمقته من خلف الجفن فاحترق قلبه.. لحظتها.. لحظة أن أدرك، فاحترق داخله كله، صمم أن يعيد لها ما ضاع منها..

– كيف حدث؟

ولو طلبت منه عمره كله اتقاء نظرتها ما بخل، كانت الذلة ترشح من العين المنكسرة، وبياض العين الخامد يدعوه أن يرفق.. وأن يستر..

– كيف حدث؟

وارتعش الجسد، وتقلصت الأصابع، وخرجت الآهة مهروسة تترف، وأحاطها بذراعيه.. أدفأها..

– أتستر علي.. أتحميني؟

– بعمري.

وتحسس شاربه..

– من هو؟

– ابن «أبو زيد»

«وتحسس شاربه.. ومن يومها.. وهو يهتم به، أطاله وسواه وشذبه.. فحامل هذا الشارب لا ينسى الإهانة.. ودخل بها في صمت، ولكن دماء زفافها لم تكن دماءها. كانت دماء حمامة مذبوحة.. وظل يحلم أن يأتي الوقت ليمحو الإهانة، فلم تكن امرأته – وحدها هي التي نالها أبو زيد أو ابنه.. ولكن نساء القرية كلها.. كنَّ امرأته».

ووجدها، تنظر إليه، ثم ترتمي فوق صدره، ثم تسترخي عليه كله.

.....

ولكنه قتل قبل أن يمحوها.. أدرك بفطرته أنه آن للطاغوت أن يمضي.. وأنه ليس وحده.. وإنما كل قريته باتت تحلم به .. فأسرع بالقول.. ولكنهم صادروا الفعل فقتلوه.

....

وراعني صوت رفيع ينطلق في حس مدهوش.. كان طفلا يحمل وجها بريئا وغافلا.. وكانت ملامحه الطرية في طريقها إلى التصلب، فلقد تسلل التوتر والقلق، ثم جاءه الخوف مما يرى.. عيناه واسعتان تنتقلان وتشربان ما ترى.. ولم ترتويا.. لاصق أمه.. وناداها وما ردت عليه، رأى عينيها تسحان بالدمع، وإفراز أنفها يضايقها، مالت إليه في صمت، مسكت بذيل جلبابه وأفرغت أنفها.. سحب الطفل جلبابه وأخذها نشيج حاد، فاهتز. فلكزها بكوعته، فقرصته فبكى، أخذته بين ساقيها، وأرخت على كتفيه يدين مرتعشتين.. أزاح في خفة يديها، ورفع رأسه ونظر إليها، كانت محتقنة الوجه، ذاهلة أدرك أن الأمر صحيح، وأن ما سمعه من ترديد الاسم يؤكده.. فلم يتحمل، وخرج من بين ساقي أمه، ولاصقها جانبا، وشد ذراعها.. وسألها.

- أمي لم قتلوه؟

- حط «الحجر» في عين النار.

- أكانوا يلعبون «السيجة»؟

- وهدم السيجة!

- أمن أجل السيجة يقتلونه؟

- أراد أن يطفيء عين النار.

- وهل أطفأها؟

- لم يمهلوه.

– فلماذا قتلوه.

– لأنه أول من قال..

– وماذا قال..؟

– لا توجع القلب.. فكفاه وجعا..

وعادت الأم إلى البكاء، وكان بكاؤها حادا وعاليا، فاهتز جسدها وخيِّل إليه أنها ستسقط فأحاطها بذراعيه.. وقف على أطراف قدمه.. «شب» ليربت على كتف أمه.. فازدادات عويلا.. مسك ذيل جلبابه وقرَّبه إليها، فقد كان أنفها ممتلئا ومنسكبا.

– لماذا يقتلون الناس؟

– كان عمي طيبا.. كان يحبني.. ويحب العيال الصغار.. وازدادت بكاءً، فترك ذراعها، وجرى.. كان يراه وهو يجري يمسك بكوز الذرة الأخضر، ويعطيه له، كان يراه «حجرا» عريضا يرقد عليه، وصدرا حنونا يلجأ إليه. كان يراه حدوتة في الليالي الطويلة.. وابتسم.. ابتسم وهو يراه يحكي له عن الشاطر حسن.. فبكى.. وصرخ، وانفلت من بين الجموع.. وحط على صدر القتيل.. امتدت الأيادي تنتزعه.. ولكنه تشبث به فدارت الرءوس، وانحطت العيون في بلادة عند مواطئ الأقدام.. وبدا هو.. الطفل.. يتنطط كنحلة مليئة بالشهد.. دفس يده الصغيرة في الصدر البارد.. فلقد عوده أن يعطيه قرشا كلما رآه.. فرد أصابعه فلم ير شيئا.. وضع إصبعه على شاربه.. رفع شاله، طالبه بالكوز.. كوز الذرة.. ولم

تختلج العين، ولم يضحك الوجه، ولم تمتد اليد.. فبكى واشــتد عويلــه.. دحرج يده عليه حتى قدمه، ورفع صوته.. طلب أن يحكي له حكاية.. أن يكمل حكاية الشاطر حسن، أن يوضح له.. هل يســتطيع أن يصــل إلى حبيبته؟ ولكن الجسد الممدد لم يتحرك، واللسان لم يعد يخرج مــن الفــم، واليد لم تعد تمتد.. وبكى وظل يبكي.. وأحاطه بذراعيه.

– ما كان يجب أن يموت!

– من أجل الصغار.

– ولكنه مات.. أتموت معه؟

....

ومشى الناس في طابور طويل يشيعونه إلى القبر.. وغافلــهم فــص الماس، فلم يدخل معه.. ولكنه مشى بين الناس يتملاهم، في خفية.. حــتى عثر على الطفل الصغير، وحط عليه في وداعة.. فمد الطفل يــده، وواراه قلبه.

الماء.. والنور

«الناس ينامون في رخاوة، ونسوة الحارة يتمـــددن فـــوق الحصـــير باشتهاء.. شمس مالت قبل الأوان.. باب البيت تناثرت ألواحه.. والأولاد يتعاركون.. ترك لي أجزاءً ونتفا مبعثرة وطلب مني تجميعها.. من لي بواحدة تقوى على ذلك كله.. توقف النبض وتنسي الرغبة.. يوه.. اذكـــري الله وانسي.. الحمد لله على عطائه.. وضعت السبت على رأسها ومضـــت.. البيض والجبن حصاد يوم بطوله.. تقطع الحواري، تلف علـــى الأبـــواب، تبحث عن رزق مخفي خلف الجدران.. الأولاد مرميون في جوف الـــدار.. كحرام تفكك خيطه.. «كالطاحونة.. لا تكفين عن الدوران.. تـــدورين وتدورين يا زليخة والأولاد كالقواديس.. والمزغود يحب «القرص» مـــن برام السمن.. والفقي لا يرحمه.. ومن يرحمني أنا.. هيه..»

فرت بسمة هاربة من شفتيها.. تنبهت إلى أن سعدية تسير بجانبـــها وعلى رأسها برام السمن فهي الأخرى تحصد شقاء الليلة الأخيرة.. حيتها وأسرعت «لو أنها أمينة لاشتريت منها.. فارغة العين.. في سوق الثلاثـــاء اكتشفت أم الخير أن زبدة سعدية مخلوطة بالذرة.. بكت، حلفت بســـيدي رزق أن الزبدة بختم ربها.. وأنها من خلق البرام.. لو..!» نظرت إليهـــا في ضيق وهي تسرع.. زليخة ترمح وشبشبها يرن، ويرمي حوله ترابا خفيفا، وذيل الطرحة السوداء يتلوى على الأرض في عصبية.

– على مهلك.

– تأخرنا.

«كأن العفريت ركبك. ترمحين وكأن المشى معك زينـــة.. العيـــال العيال.. تحلمين أن يملأوا عليك الدار.. هيه.. ما أن يخـــط شـــاربهم يـــا زليخة.. سيتركونك مثل أبيهم البغل.. بصي في المراية.. وجهك محروق بمية النار..» شغلها رنين دراجة فالتفتت .. ولوت بوزها.. طيف ابتسامة لاح ثم وئد في التو.. كشرت، ضغطت شفتيها.. رمت بيدها.. دقـــت الأرض وأسرعت اقترب منها، ضايقها، جفلت رمى في وجهها خاتمهـــا، انحنـــت، التقطته وطوحت به في الترعة صاحت بمحبوس الصوت.

– قدام الناس.

بين لحظة وأخرى ترفع طرحتها لتواري خجلها، «طـــبطبي عليـــه.. سيظل حولك حتى يفضحك.. والبغل في الترحيلة.. نصحتك فقلت إنـــه يفرض نفسه عليك.. أفهمتك أنه لا يمكن لرجل أن يفرض نفســـه علـــى امرأة.. دفست رأسك في حجرك العريض وتأوهـــت.. كـــادت عينـــاك تأكلاني.. قلت في حدة: تغارين مني يا زليخة.. تركتك.. وقلبي يعصـــره الألم.. يوه مالى أنا».. حادث جرف الشاطئ، أعجبها ورد النيل مغموسا في الماء، وحين رأت البطة تسبح وأعشاب الترعة تتماوج.. وخبطات الأجنحة تتوالى، ورخات الماء تنساب على الجانبين.. ورقبتها تطول في اســـترخاء، ارتد إليها بصرها في رعب «لو أنه لم يركب رأسه، لكنـــت الآن تـــنعمين بساعة الصباح، وتتخدرين بدغدغة المضروب حين يلقم الثدي ويجرسه، لو

أن أباهم لم يركب رأسه، لكنت الآن معهم، نفطر معا، ادفسي في جيب المزغود قرص السمن وقطع السكر، أعلق في رقبته اللوح وقلم البوص ودواية الحبر.. الهباب.. لو .. أن.. لو ...» وفرت من عينيها دمعة ساخنة ضاهدة. تبعتها ولهفت نفسا عميقا من هواء الصباح، تنهدت بعمق وتابعت خيط الضباب ثم انحطت يدها على كتف زليخة. هالهتا عظمة ناتئة كقرن الجاموسة. لوت زليخة بوزها.

«دوما تلوين بوزك» دلقت نظراتها عليها فاحتوت وجهها..«ضاعت رموشك مما تهربين أصبحت كعود البرسيم المحروق من ماء الندى.. والشعر الأصفر الخفيف كشعر الولد أسفل الذقن.. ألم تلاحظينه؟ لو ماء الندى.. آه.. وتلوين بوزك!!» دفعت بإصبعها إلى أذنها فاقشعرت، ارتعشت زليخة، كومت طرحتها، وخبأت أذنيها «مازلت تحاولين.. إصبعك ساخن ومثير.. وتعلمين أنا موطن الرعشة.. كان كالجمل يطحن ما تحته.. لكنه مضى وركب رأسه».

– وحدي الله!

«تنفرين مني وكأنني واغش.. يعاكسني.. أنت تعلمين أنهم يرغبون في.. خصبة أنا كأرض البرسيم».

– أرض البرسيم تبور لو غاب عنها ماء الندى.

– هيه..!!

«أخذت ركبتي بين فخديك يوم نمنا سويا.. ودفست إصبعي في أذنك، ليلتها ارتعشت وارتخت عضلاتك.. حتى أنت أعطيك..».

- يلاحقني.

- أنت حرة

- بلا رغبة.

- فقدناها.

- إننا نعطيها.

- وحدك.

«زوجك في البلاد البعيدة.. وأنتما تدهنان جسميكما بنوار البرسيم».

- العطاء للزوج.

«زوجي!! أبو العيال! كان يغيب أيضا.. كنت أحتال مع الشبح.. كنت أبقي سرواله.. من منا لا تثور به الرغبة..».

- أين هو؟

- معك؟

- معي..! وهو في الترحيلة..

- اشغلي بالك.

- مشغولة بالرغبة.

- «ألهث بين المنبع والمصب.. حتى يخرج النوار باهرا كعين الشمس».

- كفي.

– أموت.

– وزوجك!

– هو الموجود دوما.

– زوجك يسيطر عليك لحظتها!!

– نعم..

خبطت صدرها بعنف، وتاهت منها العين، أمسكت ذراع سعدية، اقتربت منها حدقت فيها، أرادت أن تقولها.. سقط انفعالها فتركت الذراع والوجه.. «حلوة، حلوة وتثيرني.. تخرجني كلما تواجدنا من بين ركام ثقيل.. لعبنا معا في ليالي الشتاء، كشفت في المجهول الذي أحرص على بقائه، لست وحدك، نحن أيضا.. تموت المرأة منا في عز شبابها إذا لم يرغبها أحد.

لاحظت سعدية ابتسامة حيرى.. قالت وهي تبتعد:

– من يرغب؟

حطت عليه كآبة قاتمة، وتسطحت عيناها.

«أنا لا يرغب في أحد!! لو لم نكن على باب الله لربيتك.. أنا لا يرغب في أحد.. زمن ملعون.. ابعدي عني.. لو أستطيع ضربك!!.. ابعدي.. تثيرينني.. أتلهف كلما تواجدنا.. أنا لا يرغب في أحد.. يا.. يا». ومحت عبسة مشدودة تعلو وجهها كله.

ويلوح المركز في الأفق، البنايات تنفض عنها كسل الضباب، وتخترق في قوة سياج الغبشة، وضوء الشمس الوليد ينعكس على المرايا البعيـــدة، وضجيج السوق يجذب المرأتين فتسرعان.

– زليخة.

نفر منها عرق خفي. جاهدت أن تخفيه.

– الجو حار وأخشى على الزبدة.

– ليس للذرة رائحة.

– لا تكلميني من طرف أنفك.

– ما بي رغبة.

– مع أنك ثرثارة.

– ليس معك.

– ولم؟

– لا تغضبي.. فأنا لا أحبك.

– ولا أنا..

ضحكت المرأتان غصبا، تواجهتا، فتصلبت العيون..

وبلا رغبة في الضحك ضحكتا. وافترشتا مكانـــا بجـــوار الســـور الحديدي.

«السبت» مفلطح القاع، رصت عليه قطع الجبن وحبات البيض، وصينية النحاس عامت فيها قطع الزبدة.. وعيون الرجاء تطوف بالمكان. وتطلب المشتري.

«الناس يموتون من الحر.. كيف أنت في غربتك.. دوما تأخذك مني الترحيلة ولا يتبقى لي إلا بعض ليلات.. أتراها تكفي يا رجل؟!». بركن عينيها صادتها وهي تنظر بدهشة.. فليس على الحيوان جناح.. فقد أدار الحمار ظهره للعالم ولم يهتم..

اشتدت قبضة الشمس، ودت سعدية لو تخففت من ملابسها.

– الجو حار، وجسمي يضايقني..

هشت زليخة الذباب، ومنعت طفلا كاد يسقط على السبت.

– زليخة .. سأتخفف من ملابسي!

رمتها بنظرة حادة، وعادت تهش على السبت.

الحرارة تشتد، الصياح يرتفع، الغبار ينتشر، المرأتان تصهدان، والشمس مصلوبة، ورزق الله في الغيب.

– لم أبع بيضة واحدة.

سحبت سعدية صينية الزبدة، وضعتها تحتها، تظللها وتحجب عنها وهج الشمس.. وطالت نظرة زليخة إليها..

انفجرت فيها بضيق.

– تبصين إلي وكأنك حماتي.

– أنزلي الجلباب، واستري رجليك.

انحنت وداعبت قطع الزبدة.

– تطمعين في الرزق وأنت عارية.

– اقفلي فمك.. وإلا.

– يكفي البلد..

ويولي النهار هاربا.. وتبيع زليخة حبات البيض وبعض الجبن.. وتقل قطع الزبدة العائمة، وتبتسمان، تقدمت عجوز ومالت على سعدية.. جلست بجانبها، لعبت أصابعها بقطع الزبدة، شالت ذيل الجلباب، رمقتها فانحنت عليها في همس، أزاحتها في غل.

– إبعدي عني فإن لي زوجا.

ضحكت عينا العجوز.

– ولنا أزواج.

دفعتها في صدرها فارتمت، شهقت وتحفزت، فزت زليخة وسحبت العجوز وأجلستها بجانبها.

«يطمعون في وأنت بعيد.. أحبك، فاسع حتى أتذكرك.. حين أجدك في القلب، أقوى ولا أقع..» ودت لو نهضت لتنهش العجوز تروي الأرض البور، وتضن علي بالخصب فأجدب.. طفلي شائه لم يتخلق.. وزليخة

عندها أولاد بعدد أصابعها، ينسونها، ماذا لو عدت وغطيتني بعباءتك .. ماذا.. ما..»

مسحت دمعة كبيرة غطت وجهها كله، واسترخت العين، أدهشها أن ترى العجوز، وزليخة تضحكان، كما لو كانتا صديقتين.

– عندك أولاد وتحتاجين إلى كل قرش.

– ركب رأسه.. وتركهم.

– الباقي بجنيه.. لكن..

قرصتها في صدرها، وهي تضحك في جرأة.

– أنت تفهمين..

....

جنيه كامل، إكسي الأولاد.. اشتري الدمور والبفتة.. الحلاوة الطحينية «للمزغود».. مراية صغيرة.. منديل بخور .. ساعة.. بجنيه.. أنا لا يرغب في أحد.

سعدية.. انظري.. جنيه بأكمله.. جـ.. ن.. يـ. .ه..».

– وافقت!

وحين نظرت إلى سعدية، واجهها وجه عابس نافر، وبصقة كبيرة تعكس وجه الشمس، دق قلبها بشدة، ويد العجوز تتباطأ في دعك الكف.

لا تترددي..

....

«لو كنت معي ما فكرت.. الأولاد يطحنون «يا بـــو العيـــال».. لم تتحمل كلمة من شيخ البلد.. وتريدني أن أتحمل هذا كله.. قال لك أنك خادم جلف.. رميت في وجهه الفأس وسحبته إلى البراح.. هلل النـــاس.. قامت القيامة.. وبعدها مت مقتولا.. ماذا لو تحملـــت ألمـــك أن تكـــون خادما؟.. ألم تكن فعلا خادما؟ ولو كن معي ولو تركـــب رأســـك.. لمـــا فكرت.. هل .. هل .. ستغفر لي.. هل.. هــ.. ل...».

....

الفهرس

من يقتل الحب؟	٥
المسَافرة	٩
إيقاع الكلمات الصدئة	١٥
في الليل.. تكثر الحشرات	٢٣
عندما يجف النهر	٣٧
الطبلة	٥١
شعاع من الماس	٦٣
الماء.. والنور	٧٥